صالح الديواني

تُهمةُ التَفكِير

جريرة تغييب العقل

مدارك

تهمة التفكير.!

جريرة تغييب العقل

الكتاب: تهمة التفكير.!

المؤلف: صالح الديواني

التصنيف: فكر

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: أغسطس (آب) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 721 - 6

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

Madarek مدارك

Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية

8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia

Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

صالح الديواني

تهمة التفكير.!

جريرة تغييب العقل

المحتويات

فكرة الكتاب ٩

مدخل ١٩

لمحة لما جاء في تعريف العقل ٢٧

العقل في اللغة ٢٧

العقل عند أرسطو وابن رشد ٢٩

العقل في الفلسفة الأوروبية ٣١

تهمة نسبية العقل ٣٤

الفكرة والتفكير ٤٣

مهارات التفكير: ٤٦

أنواع التفكير: ٤٧

الاتجاهات الفكرية ٥٠

تهمة التفكير وتكفيره ٥٢

أمثلة على تكفير وقتل الفلاسفة والأدباء والمفكرين عربياً ٦٠

تكفير وقتل الفلاسفة والأدباء والمفكرين في أوروبا (أمثلة) ٦٦

أخطاء التفكير والخطاب المنطقي ٧١

الفكرة ضالة العربي ٧٦

تحييد العقل.. انقلاب على الأخلاق ٨٠

سلطة العقل وفضاء الروحانية ٨٤

جوائز التفكير المغيبة ٨٧
أزمة فهم المصطلح في العقل العربي والإسلامي ٩٧
الفلسفة.. غائب في الضمير العربي ١٠٢
من سيرة الجهل العربي ١١٠
١٠٠ عام على سؤال التخلف ١١٣
وهم الحضارة العربية ١٢٠

رصاصة واحدة قد تقتل شخصاً واحداً فقط، لكن
فكرة واحدة قد تقتل أمة كاملة.

فكرة الكتاب

الدعوة إلى تقدير التفكير والعقل ومنطقهما في هذا الكتاب، ليست دعوة لصنع وثنية جديدة يمثلها العقل، ولكنها محاولة لتحريض الإنسان على الوثوق بالعقل ومنهجه ومنهجيته، وفحص نتائج عملية التفكير ومنطقها، لتشكيل وعي مختلف يتماهى مع ركض الزمن إلى ما بعد، ويرفض أطروحة العودة إلى ما قبل، فالزمن منطقياً لا يعود إلى الوراء في حالة بقاء الكون على ما هي وضعيته الحالية، لكنه قد يتغير تحت ظروف معينة.
وفي هذا الإطار سأتناول نقاط أحداث وتجارب وأزمنة متعددة، ابتداءً بما قبل الميلاد إلى زمننا الحاضر في القرن الحادي والعشرين، محاولاً ما استطعت قراءة تأثير الطرق التي انتهجها الفكر الإنساني بشكل عام، والفكر العربي والإسلامي، على مسيرة وفعالية العقل والثقافة في محيطه وخارج محيطه، وانعكاس ما اتخذ من مواقف متباينة، تجاه العقل وعملية التفكير وأوساطهما الاجتماعية والثقافية، بالصورة والقيمة التي وضعهما فيها المنهج العربي والإسلامي قديماً، ووصولاً إلى ما ترتب عليه المشهد اليوم، من أحداث ووقائع أرى أنه قد فشل في قراءة مفاصلها وأهم نقاطها والتعامل مع أغلبها بنجاعة لتحقيق الأهداف النبيلة لمقاصد البناء والوعي الإنساني بإهماله لقدرات العقل وقوته.

إذ عبر القرون الثلاثة الأخيرة وتحديداً منذ ظهور التغيير في معايير النظرة الفلسفية للأشياء، في القرن السابع عشر وما تلاه، قطع الإنسان على كل المستويات العلمية والفكرية والثقافية، ما لم يقطعه على مدى تاريخه البشري بالكامل، ولا أرى في هذه القرون الثلاثة إلا طلائع لرأس المستقبل البشري العظيم كماً وكيفاً، وحجم التغيير الهائل الذي سيحدث لتاريخ البشرية جمعاء، إذ لم ينطلق الإنسان بهذا القدر الهائل والمتسارع، ويؤثر في مشهد الصورة المكونة لعالمة الكلي بشكل كبير فعلاً، إلا حين ظهر عصر تحطيم الأغلال بكافة أشكالها، وإطلاقه العنان لجموح العقل وعنفوانه، تاركاً خلف ظهره الكثير من أطروحات الماورائيات والحكايات البعيدة عن أرض واقعه، فتهافتت أمام إرادته نظريات الخرافة الخارقة التي طالما رآها من نافذة المقدس والمحظور والممنوع، التي جعلت منه تائهاً بين الفكرة التراجيدية الأسطورية ورومنسية الماورائيات (الميتافيزيقا)، وفضلهما عبر تاريخه على قصته الإنسانية الواقعية وحراكه ويومياته، ما أفضى إلى فشله

مراراً في تجاوز هيبة الموروث، وسلطة المنقولات الظنية، دينية كانت أم غير دينية.
وهو المأزق الذي يحرضني للمساهمة في استكشاف طبيعة عمل هذه الآلة العبقرية المسماة بـ(العقل)، وطريقة إنتاجه المعقدة للفكرة، وآلية التفكير وحيويتها، في وضعيته الحرة الخالية من المؤثرات، وتلك الواقعة تحت الضغوط المختلفة التي يرسل في ضوئها إنتاج الفكرة، وتقديم بعض التجارب والمطالعات في الحياة، وتقديم تجربة وحالة تفكير فردية لما قد يكون إسهاماً لغد. ولا أدعي كمالها.
لقد فرض تدفق مد الفكر الحداثي -الذي لم يتوقف عبر الزمن- فلسفته على المجتمعات الإنسانية، من واقع تمرده واختلافه عن العادية والجمود، إذ عاود المنهج العقلي المدعوم بفكر الحداثة هذه المرة، انطلاقته مطلع الثمانينات الميلادية عربياً على وجه الخصوص والتحديد عند كثير من الباحثين، بعد طول مجافاة ورفض لأطروحات الحداثة بفعل عدة عوامل، كان أبرزها وأهمها دعوى الاعتقاد بتعارض مضامين هذا الفكر (الحداثة) وأهدافه التام مع تعاليم الدين ومضامينه، واعتبار الحداثة ردة عن المعتقد الديني، وهدم لثقافة وخصوصية الأمة ومقدراتها، غير أن هذه المواقف المعادية للحداثة تؤكد تأثيرها على الحضارات كلها دون استثناء، وأنها أضافت بعداً فلسفياً جديداً لمعنى المواجهة، ومعركة الهدم والبناء، من خلال فرضها لأدواتها وأسلوبها على الآخر المجابه لها، وجعلته لا يجد بداً من الانخراط في فكرها على نحو ما، وهذه إحدى نقاط قوتها الذكية، فالمعارضون للحداثة منخرطون لا شعورياً في روحها وتطبيقاتها وإن أنكروا ذلك. والمؤكد أننا أمام تحولات تاريخية، تستدعي ضرورة بلورة مواقفنا من الحداثة، لتصب فيما يزيد من وعيناً بالمتغيرات، وجعلها مشروعاً مجتمعياً حقيقياً، يخدم حركة نمو مجتمعاتنا العربية والإسلامية باتجاه إيجابي فاعل. لا أن نقف معارضين دون أن نعم لماذا نفعل ذلك يقيناً.
ولأن مشكلة السطحية في العقل العربي عميقة بعمق تاريخ تغييبه، فإننا نجده يلتقط الهاجس الأول المرتبط بالعاطفة مباشرة، وليس الفكرة الأولى المرتبطة بالعقل والتحليل، وسأحاول في هذا الكتاب البسيط، أن أقدم رؤيتي الفكرية والفلسفية الخاصة، لبعض المسائل المتعلقة بالإنسان، وكينونته وطريقة تفكيره وممارساته ويومياته، عارضاً ما لدي من الأطروحات الخاصة، متجنباً ما استطعت، ترديد وتكرار ما جاء به أو طرحه المفكرون على امتداد الزمن، معتمداً ما استطعت أيضا على منهجية تحليل وتفكيك ما قالوا به لا نقله كما هو، وهذه طريقتي في تناول ما حولي، وأسلوبي في الكتابة والنظر إلى الأشياء عموماً، ليقيني بأن الإضافة لا تكون باجترار الماضويات باعتبارها مسلمات، بل باعتبارها خطوة سابقة يجب أن تتبعها خطوة أخرى، من خلال طرح مقابل ليس بالضرورة أن يتوافق مع

سابقه، ليس لمجرد الاختلاف، بل من أجل فتح زاوية أخرى لرؤية الأشيّاء. إذ وعبر قراءاتي في كثير من جوانب الثقافة والفلسفة، اصطدمت بكثرة منقولات «المؤلفين» لآراء السابقين في معظم كتبهم، أكثر مما قرأتهم هم وأطروحاتهم، ولا أجد حضوراً لآرائهم وتحليلاتهم فيما يضمنونه في كتبهم إلا ما ندر للأسف، وهو ما لم أستسغه على مدى اهتمامي بالقراءة والثقافة، فلطالما عارضت الأخذ بمنهج النقل والاكتفاء به كعرض أو كقناعات راسخة لا محيد عن اتباعها، دون تقليبها وإعمال العقل في متونها وهوامشها، وإبداء الرأي الخاص بالمؤلف، وإن تعرض لذلك فلا تراه حاضراً إلا خجولاً مرهوباً من شيء ما!

وهو ما يجعل معظم تلك الكتابات والمؤلفات (القائمة على حشو المنقولات) في العصر الحديث، تبدو وكأنها ليست أكثر من بحوث ومشاريع تخرج للدراسات الجامعية، يكتبها أصحابها في زمن ما لغرض ما، سرعان ما تتحول إلى كتب مطبوعة عند كثير منهم، وهذا لا يعطي جوهر التأليف بمفهومه ومعناه زخماً عميقاً يحدث نتيجة تأسيس قرائي باحث عن حقيقة الشيء المطروق، ولا يعبر عن فكر المنتج الكتابي النوعي، الذي يمكنك أن تطالع وتكتشف من خلاله أفكاراً جديدة، أو عوالم مختلفة ومتنوعة.
لذا لن تجد الكثير من الإحالات -بل تضمينات داخلية لإشارات المستشهد به على سبيل الإيضاح- في هذا الكتاب، الذي آثرت ألا أكون نمطياً إضافياً جديداً، وأفرغ عقلي من قيمته الأخلاقية، ومضمونه الإنساني العظيم، أو سالكاً سبيل اجترار الماضي، بدلاً من السير على طريق شغف الفضول المتطلع إلى المستقبل وجاذبيته وعبقريته المتجددة. تاركاً مهمة البحث والتقصي لما أورده من اقتباسات ورموز وأسماء، كمشروع يمهد للقارئ الدخول إلى عوالم البحث والاستكشاف، عاقداً بنفسه المقارنات والمقاربات وتكوين رؤيته الخاصة به، من خلال بحثه ومطالعاته عن المعلومة أو تأكيدها، في محاولة لإعمال العقل في كل شيء من حوله، لأن أخطر ما يهدره الإنسان هو العقل وعملية التفكير العبقرية.

وقد عرفت الثقافة العربية بأنها ثقافة متحفظة (جداً) على العقل، مقللة من إنتاجه، مفضلة النقل المطلق عليه، وتحجيم مخرجات نتائج عملياته وآلياتها أمام المنقول النصي، وهذا أمر يدعو للاستغراب، وهو أهم أسباب التخلف العربي والإسلامي على الإطلاق.

المؤلف

معلومة تاريخية مغلوطة واحدة يمكنها أن تغوي أجيالاً كاملة دون رحمة

الفصل الأول

مدخل
لمحة لما جاء في تعريف العقل
العقل عند أرسطو وابن رشد

العقل في الفلسفة الأوروبية

تهمة نسبية العقل
رواق فلسفي.. بين هيجل وكانت

مدخل

لم تنس جدتي رحمها الله أن تسرد لي ولإخوتي -أيام حياتها-، شيئاً من التاريخ الأسطوري الذي حمله تاريخ عقلها طيلة فترة حياتها الحافلة بالأحداث والتقلبات. وهو التاريخ الذي خزنته في ذاكرتها نقلاً عن ذاكرة سابقة لها، وكان مما سردته لنا رحمها الله، قصصاً أخذتنا معها لفضاءات الخيال الواسع، لتتمكن من عقولنا مدة من الزمن ليست بالقصيرة، فمن قصص ذراع عنترة ابن شداد العبسي الفولاذية، إلى ركض أخيه شيبوب الأسرع من الريح! مروراً بقصص بصر زرقاء اليمامة الخارق وعينيها الجميلتين، التي ترى أبعد من كل أعين وخيالات (هوليود) وأبعد حتى من رؤية وبصر بطل مسلسل رجل الستة ملايين دولار (ستيف أوستن)! وهو المسلسل الذي تزامن عرضه مع أواخر حياة جدتي، الأمر الذي جعلنا نصدق كل حرف من قصصها الخرافية تلك، مسلمين بالخوارق خارج الطبيعة وداخلها، وكرامات الأولياء والصالحين الذين يصعدون إلى السماء ويعودون إلى الأرض في طرفة عين، أو ينادون السحاب إلى أرضهم فتمطر!

لقد كانت ذاكرة جدتي مُذهلة وهي تحمل ذلك الكم الهائل من الحكايات والأساطير، في زمن كان وجود الكتاب فيه من الشح والصعوبة بما كان (في أوساط المجتمع الذي عشت فيه).

في الواقع لم نكن لننكر حجم دهشتنا بما جاء في مضمون تلك الأساطير الهائلة، التي ساهمت كثيراً في تفتيح أذهاننا على طريقتها المدهشة، وأسست من غير قصد لعقليات حالمة أكثر منها واقعية مرتبة، تتناسى أوجاعها الحياتية الصعبة والمعقدة، لنستمر -وبطريقة ما- في التحليق عالياً في سماوات الخيال الممتع المدغدغ، باحثين عن التفرد والتميز حتى وإن كان حلماً نعيشه..

لقد أرشدتنا تلك الحكايات إلى كيفية التحليق في الأعالي، لكنها نسيت أن تعلمنا آليات الهبوط والعودة إلى الأرض من جديد، لذلك بقينا معلقين في فضاءات من الخيال الخائن اللامحدود، لا نرى تحتنا أرضاً ولا من فوقنا سماء.

هكذا ربما كانت تسير أزمنة التاريخ العربي والإسلامي الممتدة عبر قرونه الأربعة عشر الماضية، وعلى نفس النمط (الحكواتي) العربي التقليدي الذي سبق العهد الإسلامي معتمداً أسلوب الإدهاش والإثارة والتشويق وتراكماتها، متأثرة بخيال الأساطير الأصيلة للشعوب التي انفتح عليها العرب بعد ظهور الإسلام، وتوسع الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، فارتبطت تلك الأساطير فعلياً بشكل وقيمة الطقوس الدينية لبعض معتقدات تلك الشعوب، وكان التأثير

واضحاً وجلياً بظهور التيارات الفكرية المختلفة، وما ترتب عليها من ظهور لجماعات الفرق المذهبية، وأنواع الطرق التعبدية الجديدة ومدارسها المتنوعة. الأمر الذي أدخل المنهج الديني في نفق البدعة والابتداع أكثر من الاتباع المنهجي للقواعد الرئيسية للدين، والتي تمثلها مجموعة العبادات والأخلاق، ليبدأ الانحراف بالتأسيس لفكر وفكرة قداسات (شخوصية) أسطورية دينية، تحاكي الأشكال الطقوسية الشبيهة بما هو سائد ومألوف دينياً وفكرياً عند تلك الشعوب، موجداً أنواعاً جديدة من السلوكيات التعبدية الهجينة، التي نالت استحسان بعض الشرائح من المجتمع الإسلامي (الجديد) آنذاك، مستمراً إلى وقتنا الراهن بنسبة تصاعدية ملحوظة على نحو ما..!
ولتستمر بذلك في صنع هالاتها الروحانية وطقوسها الخاصة، مستندة إلى جموح روح الدهشة الأسطورية، التي يدعم تقديرها المستوى المعرفي والفكري البسيط والمتدني، الذي وصل إلى درجة الانحطاط في أحايين كثيرة من التاريخ العربي والإسلامي، وهذه نتيجة مُخيبة، ما كان ليصل إليها العقل العربي، لولا الحصار الذي طوقه وحجّمه، وكبح تواصله مع المتغيرات الاجتماعية والسياسية والفكرية وجوهر الدين وفلسفته، منتجاً عقلاً موازياً تشكلت بنيته الأساسية بمعزل عن الفضاء الفكري الحر والمنطقي.
هنا تحديداً ألتقي وأتفق على نحو ما مع ما ذهب إليه المفكر الإسلامي (محمد عابد الجابري) في تعريفه للعقل العربي في كتابه (نقد العقل العربي) ج ١ الطبة الأولى، الذي أتى في أربعة أجزاء بدأها بـ«تكوين العقل العربي ١٩٨٤، بنية العقل العربي ١٩٨٦، العقل السياسي العربي ١٩٩٠، العقل الأخلاقي العربي ٢٠٠١»، على أنه: «الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتاها، هي الثقافة العربية بالذات..».
احتك العقل العربي وتأثر بالعديد من ثقافات البلدان التي دخلتها الجيوش الإسلامية، فتحرك باتجاهها السياسي أولا، كخطوة طبيعية للغازي أو الفاتح الجديد، لتكون خطوته التالية في الاتجاه الثقافي التي تأتي هي أيضاً بشكل طبيعي يتسق مع الأمر الواقع وصورته، (ليرسم بدوره صورة مشتركة جديدة بملامح واقعها الجديد يُطلق عليه الهجين)، ثم ما لبث العقل العربي أن توارى رويداً رويداً تحت ضغط الثقافة الأقوى والأعمق (الثقافة التي وفد إليها)، وهي التي تأسست عبر قرون سبقت حضوره بمراحل، لكن تقدمه كان مرهونا على الدوام بتقييم الأشياء من الزاوية الدينية أولا، وهذا ما جعله أسيرا لقوالب النصوص، وهو الذي ترفضه آلية التفكير، ليحدث الامتزاج الثقافي الذي كون نوعية جديدة من الوعي، أظهر العقل الجديد المؤسس على هجين ثقافي بين العربية والمرجع الديني الذي جاء به في أقوام لا تنطق العربية، ولم تكن تدين بالإسلام ديناً، ليخرج مصطلح (العقل الإسلامي إلى الوجود)، واضعاً بصمته في مسيرته الإبداعية بما يوازي طريقته الجديدة في رؤية الأشياء والحياة والطبيعة، من وجهة نظر عارضها سواد كبير من العقل

العربي لاحقاً بالاتكاء على آراء دينية، وليظهر المكفرون بأنواعهم، ولتوجه أطروحات العقل الجديد الهجين، أولئك الذين بنوا فكرهم على الأطروحات والآراء حول النص، محولين إياها إلى مقدسات لا تقبل الأخذ والرد، ولتتحول على إثر ذلك إلى قواعد أسطورية ألقت بـ(ضلالها) على مسيرة العقل والوعي العربي والإسلامي.

لقد عطلت الأسطورة التراثية المرتبطة بالدين تحديداً، التي حملها العقل العربي والإسلامي على محمل الجد في ذاكرته أوقاتاً طويلة ولا يزال، مسيرة التقدم الفكري والنهوض العلمي والإنساني العربي والإسلامي، معرقلة فكرة البحث المفترض عن المشاريع النهضوية التي تطلع إليها وبدأها أحياناً في فترات مضت، ووضعته تحت سيطرة التسليم بقبول لغة الحكاية الأسطورية وحبكتها الهشة، حتى وإن تناقضت مع فقه العقل والمنطق والتجربة العلمية العملية!
وعلى الرغم من هذا فإن الأسطورة في الواقع لم تكن السبب الأوحد أو الرئيسي المباشر في ما حدث من انتكاسات للعقل العربي والإسلامي، إذ الأسطورة في كل حالاتها ملهمة ومحرضة عظيمة على الإبداع والسمو والتأمل، وإطلاقها في روح وبنائية النصوص يُعد نوعاً من التوظيف العبقري الإبداعي، لتضفي الحيوية على المُنتج النهائي لأي نموذج كان، وهنا ندرك بجلاء أن العنصر الأقوى الآخر تمثل في عزل العقل عن الحرية والمنطق والفلسفة، وسجنه وتحييده ونصب الفخاخ والوعيد لمناصري تحريره، مخلفاً وضعاً كارثياً ومأساوياً إنسانياً وأخلاقياً، وليظل حضوره محصوراً في جزئيات فقيرة لا توازي قدراته الهائلة، ولا تسمح سوى بقبول وخزن الإنتاج الوعظي، الذي يُتلى عليه دون أن يكون له الحق في طرح التساؤلات والاستفهامات، واقعاً في كمين ابتزاز ممجوج قمع عبقريته ونورانيته ومنهجيته، وترتب على هذا الوأد والقمع الوقوع ضحية لحالات التخلف والانحطاط التاريخية الممتدة إلى وقتنا الحاضر.

وقد ساهمت طبيعة تضاريس الجزيرة العربية القاسية قبل ظهور الإسلام، في بناء شخصية الإنسان العربي الشرسة الحادة والصلبة، ورسمت حالة تصحر معظم مساحات شبه الجزيرة العربية سحنات وجهه وتفاصيله، وأفرزت تبعاً لذلك مجتمعاً ذا كيانات قبلية صغيرة متناثرة، يجمع ما بينها البنية التركيبية، ويميزها سلوك العصبية.
ولم يسجل التاريخ قيام أية أنظمة شبيهة أو قريبة من أنظمة الدولة بمعناها السياسي والاجتماعي إلا بعد ظهور الإسلام، وفي ذلك يقول ابن خلدون في الفصل السابع والعشرين من مقدمته، في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بوجود مبررات دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة،

«إنهم لخلق التوحش الذي فيهم، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة، وبعد الهمة، والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم»، متابعاً -والكلام لابن خلدون- «وهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها، لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش». وهذا استحضار وصفي كاستدلال على شكل ماضوي، أظنه ممتداً إلى وقتنا الحاضر.

وقد عُرفت الفترة الزمنية لما قبل الإسلام بـ«العصر الجاهلي»، وهي تسمية غير منطقية من وجهة نظري، إذ الجهل يقابله العلم لغوياً ومنطقياً، والأرجح أن ما كانت عليه حالة التخلف والتناحر والقتال بين تلك القبائل، هو السبب المنطقي لاستخدام وإطلاق وصف «الجهل» عليها، فالابتعاد عن المنطق والعقل سببان مسوغان لتبرير الوصف، لكن الإسلام يصفها من منطلقات دينية بحتة، ومتعلقات ببعض العادات القديمة، كوأد البنات وعبادة الأوثان على سبيل المثال.

وبظهور الإسلام وانتشاره بين تلك القبائل، خفتت نوعاً ما حدة الطباع الشرسة للإنسان العربي بصفة عامة، أو لنقل بشكل أقرب إنه تم توجيهها والسيطرة عليها، لكنها استمرت معه عبر أجياله اللاحقة وإلى يومنا هذا بنسب متفاوتة على نفس النمط، متخذة أشكالاً متعددة، كان أبرزها وأهمها على الإطلاق ما تمثل في معاداة مذاهب العقل والمنطق والفلسفة، وتغليب مبادئ النقل والتواتر للمرويات، والتي تُعتبر ثقافة أصيلة في الوجدان العربي تاريخياً، إذ الثقافة العربية ثقافة روي ونقل، أكثر منها ثقافة ابتكار، فنحن العرب بصفة عامة لم نكن أصحاب ثقافة كتابة وتدوين، بل أصحاب ثقافة روي ومشافهة، حتى إن اسم كتابنا المقدس هو (القرآن) من قرأ يقرأ قراءة، لذلك فمن السهل والمنطقي جداً أن يضيع قسم كبير من الذاكرة التراكمية الثقافية التاريخية للعرب كالفنون والأدبيات والعادات والتقاليد وغيرها، وهو ما تسبب في الحد من نمو ثقافة وخبرات العقل، وانكماش عمليتي التفكير والتأمل الباحثتين عن الإبداع والابتكار.

وحين تمدد الإسلام إلى خارج شبه الجزيرة العربية، واختلط العرب المسلمون بمختلف الأجناس الأممية الأخرى صاحبة الثقافة التدوينية، في الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهرين، وشمال إفريقيا، وأوروبا، انفتحت أبواب التنوير التي ظلت موصدةً لحقب طويلة في وجه العقل العربي، ليضع بصمته المعقولة بين ثقافات العالم على نحو ما لاحقاً، من خلال ما خلفه من ترجمات نقلت العلوم الأممية الأخرى وشرحها في العديد من المؤلفات الفكرية، لكنها بكل أسف لم تحرض العقل العربي والمسلم على مواصلة الابتكار وتقديم منجز إنساني نوعي مؤثر في التاريخ البشري، سوى

في محطات صغيرة، ما زلنا نجتر تاريخها ونفاخر بها على الرغم من قلة أعدادها.

لمحة لما جاء في تعريف العقل

لا توجد صفة مادية ملموسة لما يطلق عليه العقل، ولكن المصطلح الشائع يستعمل لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري وأقسامه، وهي التي يكون فيها الإنسان واعياً بشكل شخصي، كالتفكير والجدل والذاكرة والذكاء والتحليل والإدراك. وهو مصطلح متعلق بالبشر فقط.

العقل في اللغة:

- وردت لفظة عقل في المعجم الوسيط، وبعدة تصريفات منها: عاقلة، عقال، عاقول، عقول، وغيرها. ومن المعاني الواردة، قولهم: عقل عقلاً: أي أدرك الأشياء على حقيقتها، والغلام أدرك وميز، ويقال: ما فعلت هذا منذ عقلت، والعاقل هو الشخص المدرك.
ومن المعاني، أن العقل هو ما يقابل الغريزة، التي لا اختيار لها. ومنه قولهم: الإنسان حيوان عاقل. ومنها ما يكون به التفكير والاستدلال، وتركيب التصورات والتصديقات. كما أن من المعاني الواردة حول موضوع العقل، أنه ما يتميز به الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل.

-جاء في لسان العرب لابن منظور: أن العقل مصدر عقَل.

-جاء في تاج العروس للزَّبيدي: العقل هو العلم، الحِجْر، النُّهْيَة، وهو قوة، وهو غريزة.

والعقل هو القوة المهيَّأة لقبول العلم، وبه يستنبط العاقل الأمور.

وقيل: العقل نورٌ روحاني يقذِفُه الله في القلب والدماغ.

وقال أبو المعالي في الإرشاد: العقل هو علوم ضرورية، بها يتميَّز العاقل عن غيره، وهو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات، وهو المَعنيُّ بقولهم: غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات.

- قال ابن الأنباري: رجل عاقل، أي: جامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقَلْت البعير إذا جمعت قوائمه، وشدَّوها بحبل هو العِقال.

ولذا قالوا: سمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقِل صاحبه عن التورُّط في المهالك؛ أي: يحبسه.

وقيل: العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردُّها عن هواها.

كما قيل: إن العقل هو التمييز، وبه يفترقُ الإنسان عن سائر الأحياء، وبه يفهمُ الإنسانُ ما لا يفهمه الحيوان.

العقل عند أرسطو وابن رشد

الفيلسوف اليوناني أرسطو (تأثر به ابن سينا، والكندي، والفارابي)، حدد معنى العقل بأنه جوهر قائم بنفسه، وعدده في:

- العقل الهيولاني، أو العقل بالقوة، وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية من الأفعال، وسمي بالهيولاني نسبة إلى الهيولَى الأولى الخالية من الصور كلها.

- العقل الفعَّال، وهو العقل العاشر، وسمي فعالاً لكثرة أفعاله في عالم العناصر.

- العقل بالفعل؛ أي النفس الناطقة.

- العقل المستفاد والعقل المطلق.

يرى الفيلسوف العربي أبو الوليد ابن رشد، أن العقول تقع في ثلاثة أنواع:

-العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقيني محكم، وتصل إلى نتائج بيِّنة ضرورية، وربطُ هذه الأدلة هو الذي يكوِّن الفلسفة، ولكن هذا لا يتسنَّى إلا لقلة من العقول الموهوبة، بالقدر الذي يجعلها تكرِّس نفسها لها.

-العقول المنطقية وهي تلك التي تكتفي بالبراهين الجدلية.

-العقول التي تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية، وهذه غير مهيأة لاتِّباع الاستدلال المنظم، ونجدها عند الناس العاديين، الذين لا يستجيبون إلا للخيال والعاطفة، وهم الأكثرية في المجتمعات العربية والإسلامية.

العقل في الفلسفة الأوروبية

1-أوغسطين (٣٥٤ - ٤٦٠م، عاش في شمال إفريقيا قرب مدينة عنابة الجزائرية)، يعد من رجال الكنيسة، ذكر في كتابه: «المعلم عام ٣٨٩م»:

يقول:

- اعقِل كي تؤمن، وآمِن كي تعقِل

٢- توما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) من فلاسفة الكنيسة، ولد في إيطاليا، واعتمد على أفكار أرسطو، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد؛ ومن آرائه

- العقل والعقيدة يرميانِ إلى غرض واحد.

- بالعقل نفهم الوجود، وبالعقل والوحي تتمُّ المعرفة، لكن العقيدة أولاً.

3-مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢م)، كاتب ومفكر فَرَنسي، من أفكاره:

4-لكل إنسان حق في أن يبحث عن الحقيقة بحرية.

-الحواسُّ قد تخدع، والعقل قد يعجز.

5-فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م) فيلسوف إنكليزي من أصحاب الفلسفة العقلية، ويعدُّه الغربيون واضعَ المذهب التجريبي الذي يقوم على الاستقراء الذي ينتقل من الوقائع المادية إلى القوانين. قال:

-العقل يكفي وحده للوصول إلى الحقيقة بدون الوحي.

6-إيمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني، كان له أثر كبير في الفكر الغربي، وذكر العقل في كتابيه المشهورين: «نقد العقل الخاص»، و«نقد العقل العلمي»، ومن آرائه

- التجربة الحسية تُوقِظُ العقل أكثر ممَّا تنفعه.

- المعرفة ليست كلُّها من عمل الحواس.

- العقل يقوم بمهامِّه بواسطة الزمان والمكان فيرتب المدركات.

- لا يتمكَّن العقل من البرهان على وجود اللّٰه، والدليل على وجوده العقل الفطري المغروز فينا.

7-فيلهيلم هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) فيلسوف ألماني، من أفكاره:

- لا يتم الوصول إلى حقيقة العالم إلا إذا تدرَّجنا بمراتب العقل من الأدنى إلى الأعلى، وقال «إن ما هو عقليٌّ حقيقي، وما هو حقيقي عقلي».

- الحقيقة النهائية التي هي أساس كل الحقائق هي العقل.

- إن الوحدة في الفكر هي وحدة أضداد، وإن المطلَق هو الانسجام بين الأضداد، وهو ما أطلق عليه (الجدلية الهيجلية أو التضاد)؛ أي إن الفكرة تتطور على مراحل: الإثبات، ثم النقض، ثم الخلاصة، ومن هذه الفكرة استقى ماركس فكره.

8-وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م) فيلسوف وعالم نفس أميركي، ألف كتباً مؤثرة في علم النفس الحديث وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الديني والتصوف، والفلسفة البراغماتية (الذرائعية)، من أفكاره:

- سلوكنا العملي هو الذي يُوجِّه أفكارنا، وليست أفكارُنا هي التي توجِّه أعمالنا.

(العقل في مجرى التاريخ، الدكتور علي شلق، ص ١١١)

تهمة نسبية العقل

لطالما بقي العقل مهملاً وغير ملائم للدخول في قطعيات الحياة البشرية عند أولئك المنتمين إلى مدرسة (تقديم النقل على العقل)، فهم من أوجدوا تهمة نسبية العقل أمام النصوص، على الرغم من أن الأخيرة هي الأكثر ضعفاً وعرضة لمستويات عالية جداً من التزوير واحتمالية الخطأ، ولا تبدو نسبية العقل المئوية شيئاً يذكر أمام كارثة وسطحية المنقولات النصية عبر التاريخ، التي يعتبر المنطق محل ريبة ولا يعتمد عليها سوى ما تيقن منه بعد الإخضاع للتجربة لتتمكن من الحصول على مرتبة الاستدلال.

يقول المفكر الإسلامي محمد عمارة في إحدى مقالاته بصحيفة الشرق الأوسط تحت عنوان (نسبية العقل) بتاريخ ١٠/٢/٢٠٠١م، «العقل ملكة من ملكات الانسان، تميز بينه وبين الحيوان.. وهو من أعظم نعم الله، سبحانه

وتعالى، على الإنسان.. لكنه على عظمته وضرورته، ككل ملكات الانسان، «نسبي» الإدراك.. ولذلك، فإن الاعتماد على العقل وحده -دون الوحي- الذي هو علم الله المطلق والكلي والمحيط يقف بالإنسان عند «النسبي» و«الظني»، اللذين هما غاية الاجتهاد الإنساني، ويحرم الإنسان من «اليقين» الذي سبيله «القلب» والعلم الإلهي ونبأ السماء العظيم».

وهذا كلام لا يسنده منطق الأشياء ولا يقوم على استدلال تجريبي يقرر تفوق النقل على العقل فيما يتعلق بالاقتناع والتيقن عبر القلب، الغرض منه تثبيت ضعف حجة العقل، وهي الصيغة المرتبكة لدى مجاميع العلماء الذين يضعفون العقل أمام المرويات التي ينزلونها منازل الوحي والاتصال مع السماء، على الرغم من أن الواقع يقول إن استخدام العقل تفوق على الإيمان بالنقل كيفما اتفق، فقد أنجز الاعتماد على تفعيل استخدام العقل ما لم تنجزه الحضارة الإنسانية على مر تاريخها وخلال أقل من ٣ قرون، قطع الإنسان ما لم يقطعه خلال آلاف القرون، فأيهما إذن أكثر صلاحاً وحجة ومنطقية واعتباراً.. العقل أم النقل؟
فالإدراك الذي يذكره عمارة على أنه مرتبط بالوحي فيه مغالطة صريحة، فلولا العقل ما استطاع الإنسان الإدراك ولا قرر ماهية الأشياء وخواصها.

لقد تعودت الثقافة الإسلامية على مثل هذه الإنشائيات واعتمدت عليها في أغلب بنيتها وأنساقها في التفكير (هذا إن كانت تفكر)، وجعلت من التراتبية حيلة لحجة إقناع الشارع المتلقي عبر استحضار قيمة الوحي الروحية والعاطفية، وإلباسها لباس القطعيات على الرغم من عدم ثبوت ذلك على أي نحو.
لذلك فقد تعثر العقل العربي بسبب الوقوف على ظواهر النصوص وحشد الإيمان بالأسطورية الزائدة للمنقولات التي ضغطت على الإنسان العربي، ثم تعثر الإسلامي بسبب سقوطه رهينة لعاملين رئيسيين هما: السلطة السياسية والتأويل الديني، وهما محوران مهمان يتطلب الحديث عنهما كتابة وكتباً أخرى.
لكن الصورة الأقرب لوصف وتعريف العقل العربي والإسلامي، هي الصورة التي رسمها ابن رشد في قوله «العقول التي تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية، وهذه غير مهيأة لاتِّباع الاستدلال المنظم، ونجدها عند الناس العاديين، الذين لا يستجيبون إلا للخيال والعاطفة، وهم الأكثرية في المجتمعات العربية والإسلامية»، إذ نرى صورة واضحة المعالم لهذا العقل، وهي أكثر الصور المؤلمة في الواقع.

رواق فلسفي بين هيجل

احتدم الجدل الفكري الفلسفي حول تفسير احتمالات حضور العوالم في تفاصيل بعضها، حين اختلف (هيجل) الذي صبغ النصف الأول من القرن التاسع عشر بفكره الفلسفي، مع الفيلسوف (كانت) في مقدرة أي من العالمين يمكنه الحضور في تفاصيل الآخر، وكان هذا أحد أهم الاستخدامات للعقل بغية الوصول إلى بعض مفاتيح ما استغلق على الإنسان، وهو حوار عظيم لم يقتصر على القبول بالمحسوسات كأدلة وحيدة قطعية على الحدوث والتيقن، بل جعلها طريقاً للعثور على الأدلة، وهنا تبدو القيمة الفعلية للعقل وعملية التفكير، إذ قسم (كانت) العالم إلى عالم نومينى (ميتافيزيقي)، وعالم ظاهري وجودي، وقال باستحالة انتقال الوجودي إلى النومينى وتجاوز الجدار الفاصل (الذي افترضه) بينهما، بينما جاء هيجل ليعكس الأمر، قائلاً بعدم مقدرة العالم النومينى في الحضور داخل تفاصيل العالم الظاهري، وهنا نلاحظ أن هيجل نقل الفكر الفلسفي من الدوران في حلقة الميتافيزيقي ونظرية المعرفة، إلى العالم المادي الوجودي، وهو ما سار على نهجه كارل ماركس لاحقاً، في تشكيله لمذهب الماركسية المرتبطة بالوجودية أكثر. ويُعد القرن الخامس عشر الميلادي بداية المحاولات الجادة لفك بعض طلاسم المعتقدات، ورحلة البحث عن نوع مختلف من التنوير الفلسفي، إلا أنه لم يكتب النجاح لتلك المحاولات إلا بحلول القرن الثامن عشر الميلادي، وحدث ذلك على يد مجموعة من الفلاسفة الجدد حينها، الذين استطاعوا نقل خط الفكر الفلسفي إلى العالم الوجودي. ليتحول بحث الفلسفة إلى محاولات جادة لفهم المعنى البشري، والغوص في معنى وطبيعة الإنسان، وجعل الإنسان هو محور البحث الأول، بل يجب أن يكون المعنى الأول في كل أطروحات العلوم الإنسانية على اختلافها وتنوعها، وليس تلك التهويمات المختبئة خلف ستار الأطروحات الماورائية (الميتافيزيقية)، التي تقدمها وتدعمها الفكرة الدينية عند مختلف الثقافات.

هذا الطرح الفلسفي الجديد في الواقع، أفضى إلى تكوين منحىً فلسفيٍ جديد ، يتأمل في منطقية بنية وتركيب النظام المتحكم في الحياة الإنسانية، والذي اعتاد أن يتبعه دون أن يتحقق من ماهيته أو مصدره أو مصداقيته أو جدواه وفعاليته التاريخية لمصلحة الوجود الإنساني! ليقلب ذلك رأساً على عقب، كل المنطلقات الفكرية الفلسفية القديمة المستمدة من صلب الفكرة الدينية وأبعادها، والتي تقول وتؤيد سيطرة النظام الجاهز على الواقع والوقائع. ليستبدل المنحى الفلسفي الجديد تلك الفكرة الفلسفية

العتيقة، بأخرى ترى دعم المنطق في أن يخلق الواقع والوقائع شكل النظام وأسسه وبنيته وليس العكس، أي أن تكون الوقائع وواقعها السبب الرئيسي في بناء وصنع النظام، وهذا التفكير الفلسفي -من وجهة نظري- هو قمة المنطق الذي تحتاج إليه البشرية، لفهم واقعها وخلق مستقبلها.
وهو ما أحدث كل التغيرات الجذرية المبهرة في حياة العالم الغربي، وما يعيشه اليوم واقعاً على كل المستويات دون استثناء، وهذا التحريك للعقل هو ما تحتاجه الإنسانية لتستمر في قطع المسافات إلى مستقبل البشرية، وتكوين القيم الأخلاقية في بعدها الإنساني. الفكرة من هذا الرواق تكمن في تأمل ما يمكن للاختلاف في التفكير أن ينتجه، وما الذي يمكن أن يلعبه التفكير الفلسفي وعبقريته.

الفصل الثاني

الفكرة والتفكير

تهمة التفكير وتكفيره
تكفير وقتل الفلاسفة والأدباء والمفكرين أخطاء التفكير والخطاب المنطقي
الفكرة ضالة العربي
تحييد العقل.. انقلاب على الأخلاق
سلطة العقل وفضاء الروحانية
جوائز التفكير المغيبة

نحن العرب لا نثمن قيمة الفكرة، ولا نمنحها المساحة الكافية من حالة وعينا، ولا نتواصل مع الطريقة الإبداعية للتفكير بصدق.

الفكرة والتفكير

التفكير هو أرقى العمليات التي يقوم بها العقل على الإطلاق، وهو نتاج عمليات متتالية من الاحتمالات المتوالية، ينتج عنه فكرة أو عدة أفكار، ولسنا هنا بصدد تعريف التفكير بل انتقاد رؤيته من باب الحلال والحرام، وقياسه وفق معيارهما، ولكن لا بأس من تقديم بعض المعلومات عن ماهية التفكير وتعريفاته السريعة.

يُنظر إلى الفكرة على أنها كتعريف لغوي (اسم مرة)، وتجمع على (فِكَر)، وهي كل ما قد يخطر في العقل البشري من أشياء، أو حلول، أو اقتراحات مستحدثة، أو تحليلات للوقائع والأحداث بحسب المراجع اللغوية، فالفكرة في أصلها الفعلي هي نتاج طبيعي لعملية التفكير، والتفكر. والفكرة في نظري هي حالة عصيان وتمرد مدهش وقسري على دائرة ونظام المألوف والنمطية، يفرض ظهورها الاحتياج. حيث تنفجر وتتبلور فجأة خارج نطاق السيطرة والمنطق، لتعبر عن نفسها في حرية لا تتقيد بالزمان أو المكان أو الشكل، وهي متجهة إلى الأمام دائماً، تاركة ما خلفها كتاريخ ماضٍ منقضٍ ومقيد في إطار الزمكانية. وتبدو في كل تحركاتها واندفاعها ونواياها كالمتواطئة مع الفوضى أحياناً إن جاز لنا التعبير، وهي أقرب إلى ذلك بالفعل في بداية نشأتها وطريقها إلى التخلق.
ولأن الفكرة تعتبر خلاصةً منطقيةً لسلوك التفكير التسلسلي المنضبط لا الفوضوي، فإنها تفرض هيئتها وشكلها في حال اكتمالها على قوانين البناء

والهدم، التي تتبع نمطاً واتجاهاً معيناً لتفكير ما، منطلقة باندفاع خارق من أجواء النسبية العاقلة التي تشكلت فيها، إلى الفضاء التحرري الذي يرفض القيد والانغلاق والحجر. وهذا السلوك هو سلوك متمرد صريح ومباشر، ليس خاضعاً للطريقة. وتنتج الفكرة تبعاً لطريقة التفكير سلباً أو إيجاباً. فالفكرة الإيجابية هي نتيجة لطريقة التفكير السليمة والعكس صحيح أيضاً.
ولتحقيق الفكرة كتجسيد على أرض الواقع متمتعة بصفات خلاقة ومضيفة لما قبلها، فإنه يجب الاحتفاء بطريقة التفكير أولاً، والتأكيد على توخي آلية صحيحة تضمن تحقيق الهدف (الفكرة) في قالبها النهائي المتضامن مع الطريقة. وأي شذوذ عن نهج التفكير التسلسلي قد تكون النهاية مخيبة للآمال. لذا يُعتبر التفكير نوعاً من أنواع الفنون، يتغير تبعاً لتغير الحالة المستهدفة، ويأخذ في مهامه نقطة الخلوص إلى الفكرة بشكل محدد نسبياً، يتنامى على مهل وغير متواطئ مع الفوضى بشكل كبير، حتى تلك التي تُسمى بالفوضى الخلاقة. ويجب تهيئة الأمر لحدوث ذلك من خلال سحب العقل لمنطقة معينة تسمح له بالدخول إلى حالة من الإخلاص لأجواء التفكير غير المعلن، ليكون الناتج هو ولادة الفكرة وخروجها من العالم النسبي إلى العالم الكوني الذي تأخذ فيه مكانها وشكلها الحقيقيين، وكذلك تأثيرها فيما بعد. ولكي يثبت حدوث ذلك لا بد من توفر عوامل وأجواء معينة تتطلبها عملية التفكير لتأخذ هيئتها الصحيحة، ويكون ناتجها إيجابياً. لذلك فالقول بفن التفكير، منطق سليم تفرضه الحاجة للوصول لمضامين الفكرة ذاتها. ويظهر (التحليل المنطقي) في صدارة الاحتياجات، ثم (النقد الحر)، فالمصادر بكل اختلافاتها وتنوعها، ثقافية وعلمية واجتماعية وبيئية. وفي ظل غياب هذه المتطلبات، فإن الاستنساخ سيكون سيد الموقف في كل محاولة للدخول في وفاق مع الفكرة.
ونحن العرب مازلنا نبحث عن الطريق، ونحاول التوصل إلى مفاهيم قادرة على وضعنا في أجواء مناسبة للتواصل مع مضمون ومعنى الفكرة. لكننا نقوم بذلك بطريقة تبدو غير جدية في أغلب الأحيان، لذلك تكون النتيجة غير موفقة ولا يحالفها النجاح. لأن واقع البدء والانطلاق نحوها يغلب عليه الاستجداء والتوسل لتسقط محاولاتنا غالباً في مستنقع النيّات التآمرية المسبقة، لننجرف تبعاً لذلك السلوك إلى منطقة اللاوعي، وهي (الجهة الخطأ) في سلوك التفكير السليم كما يقول علماء التأمل، ما يجعل حالة التفكير تبتعد عن تحقيق الأهداف الإيجابية كنتيجة، ضاربين عرض الحائط بالسلوك المنظم للتفكير قبل الوصول إلى الفكرة أياً كانت.
إننا لا نثمن قيمة الفكرة، ولا نمنحها المساحة الكافية من حالة وعينا بالمطلوب، ولا نتواصل مع الطريقة الإبداعية للتفكير بصدق! وهو ما يسلب منا متعة التماهي مع الزمان والمكان في آنٍ معاً، وبالتالي ننزلق بسهولة إلى هوامش الفكرة تاركين مضمونها يبتعد رويداً رويداً، تحت تأثير سلبي يشتت

التركيز على صلب الفكرة ومركزها. ولذا فنحن نحتاج حتماً لجهد مضاعف وجدي سليم، نصل من خلاله إلى بناء أنساق ثقافية وفكرية متعددة، تتلمس وتحاكي هموم الإنسان العربي، وتنطلق من واقع إيماني صرف بضرورة انفتاحنا على الآخر، لنضمن على الأقل تكون المصدر المتنوع، إضافة لما هو موجود بين أيدينا. وقد نجح العرب والمسلمون ذات تاريخ في ميادين كثيرة، عندما فعلوا ذلك، وآمنوا به. وأما إن بقينا على حالة التمترس خلف ثقافة العناد والتعالي والإقصاء والأحادية، فإننا لن نحقق سوى القليل الذي لن يتعدى أرنبة أنوفنا.
ولنفعلها بالفعل، علينا التمرد على نيّاتنا المسبقة وطريقة نظرتنا لما ومن حولنا. والنظر للكثير من الأشياء والعوالم نظرة فاحصة ومتهادنة جداً، ومع أنفسنا وعقولنا ومتغيرات الزمان والمكان، حتى لا نقع في فخ الإسقاطات التي تنطلق عادةً من وعينا المحدود والمكابر، فاللحظة التي تذهب لن تعود مطلقاً مهما أخلصنا في انتظارها.

مهارات التفكير:

أولاً: مهارات تفكير أساسية مثل:

- التذكر

- الملاحظة

- المقارنة

ثانياً: مهارات تفكير عليا مثل:

- حل المشكلات

- اتخاذ القرارات

أنواع التفكير:

تتعدد أنواع التفكير وتختلف باختلاف أهدافه ومقاصده، ويدخل ذلك تحت ما يسمى بالتفكير المركب، وهي عملية عقلية تهدف إلى رفع مستوى الوجود البشري، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بيومياته واحتياجاته المختلفة، وتأتي أنواع التفكير المرصودة عند المفكرين والفلاسفة على النحو التالي:

١ ـ التفكير الناقد.

٢ ـ التفكير الإبداعي.

٣ ـالتفكير العلمي.

٤ ـ التفكير المنطقي.

٥ ـ التفكير المعرفي.

٦ ـ التفكير فوق المعرفي.

٧ ـ التفكير الخرافي.

٨ ـ التفكير التسلطي.

٩ ـ التفكير التوفيقي أو المساير.

وعلى الرغم من تعدد أنواع وأشكال التفكير إلا أنني أميل إلى تحديد أنواعه الأكثر تأثيراً في عدد محدد مثل:
١ ـ التفكير الناقد.

٢ ـ التفكير الإبداعي.

٣. التفكير العلمي.

٤ ـ التفكير المنطقي.

٥ ـ التفكير المعرفي.

وتبقى الأنواع الأخرى فروعاً مرتبطة بهذه الأنواع الخمسة، فالتفكير الخرافي مثلاً يمكن أن يكون ضمن أنواع التفكير المعرفي، لأن البحث عن المعرفة يتطلب بالضرورة أن تتأمل في الخرافة.

لكن ما يهمنا من بين تلك الأنواع هو التفكير الناقد، الذي يُمكن تعريفه على أنه:

تفكير تأملي يقوم بفحص وتقييم الحلول المعروضة بحثاً عن حل لمشكلة ما، وتوضيح مناطق القوة والضعف بأدلة مقنعة، وهو عملية ذهنية تتطلب في نهايتها الحصول على حكم معين على قضية ما من خلال مناقشة جوانب موضوعها.
ويمكن التقاط أكثر من تعريف للتفكير الناقد في الطريق إلى استكشاف المجهول والبحث عن إجابات منطقية للتساؤلات حول أي موضوع.

وأرى أن هذا النوع هو الأكثر أهمية من حيث احتياج الإنسان إليه، لأنه من وجهة نظري، المدخل الأول والرئيسي إلى بقية أنواع التفكير الأخرى، فمنه تتفرع وتنطلق تقريباً.
ويرتكز هذا النوع من التفكير على الشك في كل شيء، والتحليل، والتأمل كمناهج أساسية له، في سعيه للكشف عن المشكلات والعيوب والأخطاء والبحث عن المقنع، مستنداً في ذلك إلى المنطق وأسسه. كما أنه النوع الوحيد الذي يستخدم كل المعرفية المقررة في تصنيف العالم التربوي الأميركي «بنجامين بلوم» (١٩١٣ - ١٩٩٩م)، وما عُرف بهرم (بلوم) المعرفي:

(المعرفة - الفهم - التطبيق - التحليل - التركيب - التقييم). (بلوم، علم تصنيف الأهداف التعليمية: تصنيف الأهداف التربوية، ١٩٥٦).

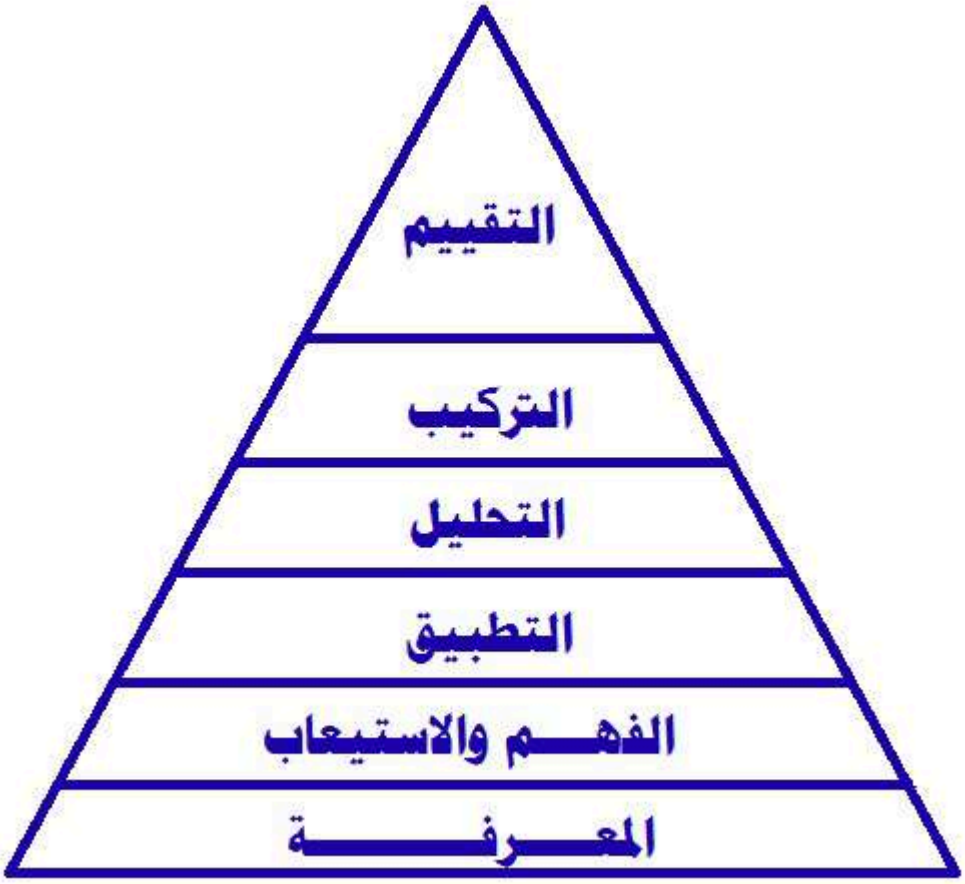

وذلك من أجل مساعدتنا في الوصول إلى نقطة اتخاذ قراراتنا، فيما نفعله أو نؤمن به أو نصدقه.

ومعاييره في ذلك:

(الوضوح - الصحة - الدقة - الاتساع - الربط - العمق - المنطق)، ومن أهم مميزات التفكير الناقد أنه:

تفكير متقارب، يبت في مصداقية أشياء موجودة، يقبل بالمبادئ الموجودة ولا ينتهكها، يتحدد بالقواعد المنطقية.
وهذا النوع من أنواع التفكير، تفتقد إليه الثقافة العربية والإسلامية بشكل كبير، فقد تسبب غيابه بفقدان الاهتمام بتقدير الموروث وغاياته، وأضعف، بل حجّم قدرات العقل في الثقافتين أمام أطروحات التسليم بمجمل النقل! وجعل منه تابعاً في أغلب المواضع، حتى بدت الثقافة العربية والإسلامية في أدنى مراتبها، وأسوأ حالاتها التاريخية وعياً وموضوعية ومصداقية.

الاتجاهات الفكرية

تتعدد الاتجاهات الفكرية بمرور الزمن وتتالي طرح الأفكار وتحويلها إلى مشاريع قابلة للتطبيق في كل ما يتعلق بالحياة الإنسانية، وتعد تراكماً طبيعياً لاستخدام العقل وتفعيل عملية التفكير، ومن أبرز الاتجاهات الفكرية التي مرت على الإنسان قديماً وحديثاً ما يلي:

الفكر الليبرالي

الفكر العلماني

الفكر الماركسي

الفكر الشيوعي

الفكر الديني

الفكر الإلحادي

الفكر الرأسمالي

الفكر الميكافيلي

تهمة التفكير وتكفيره

«لا يمكن أن يهبنا الله عقولاً، ويعطينا شرائع مخالفة لها»

(أبو الوليد ابن رشد)

منذ أن بدأ الإنسان في البحث عن مبررات لفشله أحياناً في صياغة أشيائه، ظهرت إلى الوجود فكرة لوم الآخر وتوبيخه، كفكرة سلبية هاربة من قواعد وأسس المنطق، وهي أقبح بل أسوأ ما خطر على باله وسرى بين خلايا دماغه

وحين قرر العمل بها دفاعاً عن فشلة، راح يستخدم أشرس الأسلحة وأكثرها قبحاً وتحطيماً للعقل البشري على الإطلاق.
فقد صنعت تلك الفكرة حالات لا حصر لها من التأخر والخيبة الإنسانية، خصوصاً بظهور التعصب لفكرة التصادم مع تقدم المنجز البشري المختلف فيما بينه البين.

ونقلت لنا الروايات التاريخية الكثير من الحوادث في هذا الجانب، تأتي كأمثلة واضحة على حدة الصراع وقسوته بين التفكير والمنهج العقلي وأعداء العقل والتفكير، وهي الحدة التي بلغت حد التنكيل والتعذيب والقتل والنفي، في محاولة مستميتة للانتصار الأعمى للرأي والفكرة المضادة، ومقاومة العقل المفكر وهزيمته في بعض مراحل التاريخ..!

لكن أفضل ما تكشفه الأيام في تفاصيلها، هو قدرة العقل والتفكير على البقاء قويين بعد ذهاب الأجساد والأجرام البشرية.
وإزاء ذلك تبدو حاجتنا ملحة إلى تعزيز التفكير المستمر، لنتجنب الوقوع في مأزق الفكر الواحد والفكرة الواحدة، وحركة القطيع، وشراسة الدهماء، التي تأتي عادة كنتيجة حتمية للتفكير الناقص أو المحدود.

وهذا في ظني سيسند فكرة الذهاب إلى وجوب توسيع دائرة البحث والتفكير، وفتح أبواب الاحتمالات على مصراعيها لنتمكن من الدخول إلى مرحلة أخرى من الذهنية، نرتفع معها إلى مراحل ثقة أعلى وأكثر يقيناً بالحاجة إلى الأشياء وضرورتها، وإلا فإننا سنكون فريسة سهلة لنموذج التفكير الدائري، ذلك التفكير الذي يتخذ من الاقتناع بالموجودات طريقاً لإثبات غير المرئيات أو الماورائيات، واستنتاجات الدليل بـ(لو) الاحتمالية.
كالاستدلال بالدليل على صحة الاستنتاج! أي أن صحة الدليل متوقفة على صحة الاستنتاج (لو) كان صحيحاً، لتعود وتقول إن الاستنتاج صحيحاً لأن الدليل يقول بذلك!
بينما هو في الواقع قائم على خدعة الإيحاء بفرضية قوة الدليل، بدلاً من الدليل القائم على الاستنتاج.

كقولنا: لو تجمع السحاب سينزل المطر، وهذا يُعد استنتاجاً وليس دليلاً على نزول المطر، إذ بالإمكان أن يتجمع السحاب ولا ينزل المطر.

وهذا تماماً ما كانت تفعله الكنيسة المسيحية في أوروبا في سالف القرون، وأظنها لا تزال تفعل وإن على خجل، وقد أراد الفيلسوف والمفكر الفرنسي (ديكارت) أن يقدم إليهم نموذجاً جديداً يرفض أسلوب وطريقة تقديمها

لنفسها من خلال تفكيرها الدائري ذاك.
إذ يرفض (ديكارت) الاعتماد على استخدام الحواس والاستناد إليها كمساعدات لإثبات وجود الله مثلاً، ويرى أن الحواس قد تكون مخادعة لعملية البحث، لذلك خلص إلى أن المنفذ الحقيقي الذي يمكن الاعتماد عليه، يعتمد في الأساس على عملية (التفكير) بكاملها فقط وليس غير، وقد خلد له التاريخ بعد ذلك المقولة الشهيرة «أنا أفكر إذن أنا موجود».
والواقع أن (ديكارت) بهذا يكون إنما أوجد مدرسة فلسفية جديدة، تأخذ أهمية التفكير كأساس إثبات قوي غير قابل للشك بوجوده كوجود مادي حقيقي، والتفريق بين ماهية المحسوس والملموس بشكل علمي وقطعي، وقد أثبت العلم بعد ذلك ومن خلال نظرية (النسبية) للعالم الفيزيائي العظيم (ألبرت أينشتاين)، نسبية كل الموجودات دون استثناء، لذا فإن تبني (ديكارت) للتفكير كان صائباً وموفقاً جداً.
وقطعاً هناك من لا يقف إلى جوار هذه الأطروحات (الديكارتية)، والتاريخ يشهد على كثير من المحاربين للعقل بعمومه وخصوصه، لأنهم يعتقدون بنقصانه الكبير إزاء المرويات التاريخية (النقليات)، مستندين إلى تسليم واقتناع بعض الأشخاص الناقلين لها تاريخياً، والانطلاق لتعميمها اجتماعياً كمسلمات غير قابلة للجدل!

بل تصل بعض مواقفهم إلى حدود (تكفير) مجموعة العقلانيين بعمومهم عرباً وعجماً!

وهذا أسلوب بعيد عن أسس التحليل المنطقي وأصول الاستدلال، وفي هذا يذهب الفيلسوف العربي ابن إسحاق الكندي، إلى ضرورة الأخذ بنتائج التفكير، ولو اقتصرت على نسب التوافق مع الوضع الطبيعي للأشياء، لتكون عقلاً صحيحة ومقنعة أكثر من التصديق بالمنقولات الظنية في أصلها.
متحاشين مأزق الوقوع في أخطاء المنطق (Logic Errors)، وأخطاء منطق الحوار، التي تؤكد على ضرورة توفر (المصدر الموثوق، وتجنب مطب التفكير الدائري، وتجنب عبء الإثبات العشوائي للأشياء.. وغيرها من الأخطاء الشائعة المتعلقة بهذا الجانب)، وهي التي تستدعي الحضور الذهني الكامل لعملية التفكير والحوار المنطقي، مع تجنب أخطاء عملية التفكير التي يقع فيها العقل نتيجة قصوره في استيعاب كل ما يحيط بالموضوع المطروح والمتناول.
وقد لخصها طبيب وعالم النفس المالطي (د. إدوارد دي بونو ١٩٣٣م) مُبتدع مصطلح «التفكير الإبداعي» في كتابه «تعليم التفكير» في النقاط المحورية الآتية كما يعتقد: «التحيز والنظرة الجزئية، السلم الزمني، التمركز حول الذات، العجرفة والغرور، الحكم الأولي، الحكم المناوئ، تضمين الذات، خطأ

المقدار (الخطأ الكمي)، التطرف».
قبل أن نتسرع بإطلاق الأحكام الإقصائية، أو (التكفيرية المتطرفة)، أو تلك المنساقة خلف العواطف والفرضيات فقط.
لذا أرى أننا بحاجة ماسة للاقتراب أكثر من الوعي بأهمية وضرورة التفكير والحوار، المبنيين على أسس فكرية عقلانية منطقية، نحدد من خلالها مواقفنا تجاه الأشياء والأفكار لا التشخيص الارتجالي العبثي والمتوتر، ومحاولة الخروج من مأزق الفهم الخاطئ الذي يبني عليه البعض منطلقاته وأحكامه وقضاياه.

فالتفكير إنما هو طريق للحياة، وعلى العكس منه يقبع التكفير كقاتل للحياة، وحالة التضاد هذه بين مصطلحي التفكير والتكفير أزلية ومتنافرة تماماً، ولا يمكن بأي حال أن يتصالحا يوماً ما، فالمفكر لا يُقدم على مصادرة الآخر أو تكفيره، نتيجة استيعابه لفلسفات لا يستطيع تبيانها واستيعابها (المُكفر).
والمفكر عادة يحتاج المساحات الرحبة، ليمارس الانطلاق والتحليق، بعكس (المُكفر) الذي يسعى دائماً لتضييق المساحات والدوائر مستنداً على نصوص ظنية، وبالتالي فالمفكر لا يُكفر.
أما المُكفر فيعجز في الغالب عن التفكير إلى حد بعيد خارج نطاق التبعية والعبودية، سواء أكانت عبودية معتقد أم عبودية نص أم عبودية إيديولوجيا. وهنا نجد أن المُكفر لا يفكر.
هذه العلاقة الطردية بين التفكير والارتقاء الفكري والمعرفي، والتكفير والانحدار الأخلاقي تكاد تكون أزلية، تحكمها في الغالب المصالح المشتركة بين السلطة والدين والمال، وهو الثالوث المتحالف التاريخي.

ويذكر التاريخ الإسلامي في مواقع عدة، أزمة الفقه الناتجة عن الفهم الخاطئ لماهية الدين والشريعة، وكونهما تعاليم تنظيمية للحياة، أكثر من كونها مجرد أوامر ونواهٍ فقط.
وأعتقد أن للشخصية العربية الجلفة، دوراً كبيراً في تطرف الفكرة الدينية، خصوصاً مع وجود علامات تدل على ذلك، من خلال مواقف اتخذها صحابة خالفوا الرسول وقتلوا اجتهاداً من عندهم (قتل أسامة للموحد)، وغضب منهم الرسول في رده وعتابه: (أشققت عن قلبه؟ كيف تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة).
ليطل أحد أبرز ملامح التعطيل الفكري برأسه، بحصار دار عثمان ثم قتله ورفض أن يدفن مع المسلمين، ورد في المعجم الكبير للطبراني -الجزء: (١)- صفحة (٧٨). حدثنا: عمرو بن أبي الطاهر بن السرح المصري، ثنا: عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، ثنا: عبدالملك الماجشون، قال: سمعت مالكاً، يقول: قتل عثمان، فأقام مطروحاً على كناسة بني فلان ثلاثاً، فأتاه اثنا عشر رجلاً،

فيهم جدي مالك بن أبي عامر، وحويطب بن عبدالعزى، وحكيم بن حزام، وعبدالله بن الزبير، وعائشة بنت عثمان معهم مصباح في حق فحملوه على باب، وإن رأسه يقول على الباب طق طق حتى أتوا به البقيع، فاختلفوا في الصلاة عليه، فصلى عليه حكيم بن حزام أو حويطب بن عبدالعزى -شك عبدالرحمن- ثم أرادوا دفنه، فقام رجل من بني مازن فقال: والله لئن دفنتموه مع المسلمين، لأخبرن الناس، فحملوه حتى أتوا به إلى حش كوكب، فلما دلوه في قبره صاحت عائشة بنت عثمان، فقال لها ابن الزبير: اسكتي فوالله لئن عدت لأضربن الذي فيه عيناك، فلما دفنوه وسووا عليه التراب قال لها ابن الزبير: صيحي ما بدا لك أن تصيحي، قال مالك وكان عثمان بن عفان، قبل ذلك يمر بحش كوكب فيقول: ليدفنن ههنا رجل صالح قال أبو القاسم: الحش: البستان.

وقد امتد تصاعد ذلك التعطيل حتى ظهوره قوياً على يد الخوارج، الذين أطلقوا للمنهج التكفيري العنان، وشرعنوا له بإجبار الناس على تكفير علي ومعاوية، وإجازة قتل كل من لا يقول بذلك وإن كان مسلماً تماماً. هذه اللمحة التاريخية السريعة الأولى، تستحق الوقوف والتأمل في مكونات الشخصية العربية الإسلامية على وجه الخصوص، التي رأت في التبعية العمياء للنص من زاوية تقريرية بحتة ضرورة تطبيقية بحتة أيضاً. فالوُعّاظ يعتقدون أنهم على صلة روحية كاملة بالنص، لذلك يرون الآخرين غير قادرين على التواصل مع مضامين النصوص وروحها، ويظنون أنهم أولى الناس بتأول أعماقه ومقاصده، وهي معضلة تعترض طريق تألق الفقه الإسلامي منذ قرون، ومع هكذا تفكير تعطلت وأُغلقت أجنحه الاجتهاد وأبوابه، ليكون هذا المنحى من أظلم اللحظات التاريخية في الفكر الإنساني العربي والإسلامي.

أمثلة على تكفير وقتل الفلاسفة والأدباء والمفكرين عربياً

يسرد التاريخ العربي والإسلامي والأوروبي عددا من الروايات (المشينة في الواقع) حول تكفير كل من حاولوا استخدام العقل والخروج من نمطية التسليم بكل شيء على حسابه، وموُرست ضدهم أبشع ردات الفعل السياسية والاجتماعية والفكرية، وتم تعذيب بعضهم والتنكيل بهم قبل قتلهم وسحل بعضهم، ونال الفلاسفة والعقلانيون العرب والمسلمون على الدوام النصيب الأكبر من القهر والتصنيف من بني جلدتهم دون رحمة، وحدث ذلك كله نتيجة لتغييب العقل والاستهانة بقدراته أمام المنقول وتقديسه على كل وجه حضر به، حتى وصل مرحلة تقديس الأشخاص بموازاة النصوص القرآنية والأنبياء والرسل، وما يحدث اليوم من قتل واحتقار للعقل وللإنسان

من سلب حقوقه في العالم العربي والإسلامي إنما هو انعكاس للفكر السائد الذي ما فتئ يحرم التفكير والعقل ويجرم المفكرين ويطاردهم، ومن أولئك الذين لاقوا العذابات والتنكيل من المفكرين والشعراء والعلماء القدماء على سبيل المثال لا الحصر:

ابن المقفع: اتهم بالزندقة وقتل بعدها على يد سفيان بن معاوية حيث قام بصلبه وتقطيع لحمه قطعة قطعة وشيها في النار أمام ناظريه حتى مات. (البداية والنهاية لابن كثير ٩٦/١٠)

٢- الفارابي: من أكبر الفلاسفة وأشدهم إلحاداً وإعراضاً كان يفضل الفيلسوف على النبي ويقول بقدم العالم ويكذب الأنبياء وله في ذلك مقالات في إنكار البعث والسمعيات وحتى ابن سينا على إلحاده كان خيراً منه.

(المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي: ص ٩٨ + البداية والنهاية لابن كثير: ٢٢٤/١١ + إغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية: ٦٠١/٢)

٣- ابن سينا: إمام الملاحدة فلسفي النحلة ضال مضل من القرامطة الباطنية كافر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وله من الضلالات والكفريات ما تنشق له السماوات.

(المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي: ص ٩٨ + البداية والنهاية لابن كثير: ٤٢/١٢ + سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥٣١/١ - ٥٣٩)

٤- أبو العلاء المعري: «مشهور بالزندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على إلحاده وانحلاله من الدين، ذكر ابن الجوزي أنه رأى له كتاباً سماه «الفصول والغايات في معارضة الصور والآيات» على حروف المعجم، وقبائحه كثيرة».

(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم- لأبي الفرج الجوزي ١٤٨/٨ + البداية والنهاية لابن كثير: ٧٢/١٢)

٥- أبو بكر الرازي: «من كبار الزنادقة الملاحدة يقول بالقدماء الخمسة، الموافق لمذهب الحرائيين الصابئة، وهي الرب والنفس والمادة والدهر والفضاء، وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك وصنف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة.

(درء تعرض العقل والنقل: ٣٤٦/٩ + منهاج السنة: ٢٠٩/١ + مجموع الفتاوى: ٣٠٤/٦ - مؤلفات ابن تيمية)

٦- يعقوب بن إسحاق (الكندي): «فيلسوف من أوائل الفلاسفة المسلمين منجم ضال متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة بلغ من ضلاله أنه أنكر الوحي وحاول معارضة القرآن بكلامه».

(لسان الميزان - لابن حجر العسقلاني: ٣٧٣/٦ + مقدمة ابن خلدون - لابن خلدون: ٣٣١ + مجموع الفتاوى - لابن تيمية: ١٨٦/٩)

٧- ابن النديم: «كان رافضياً معتزلياً، وقال فيه ابن حجر العسقلاني «إن لابن النديم مصنف «فهرست العلما» ينادي على من صنفه بالاعتزال والزيغ.

(لسان الميزان لابن حجر العسقلاني: ٨٣/٥).

٨- ابن طفيل: «من أئمة ملاحدة عصره من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة».

(درء التعارض لابن تيمية: ١١/١، ٥٦/٦)

٩- ابن الهيثم: «من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام من أقران ابن سينا علماً وسفهاً وإلحاداً وضلالاً كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات».

(درء التعارض: ٢٨١/٢ + مجموع الفتاوى: ١٣٥/٣٥. لابن تيمية)

١٠- الطوسي: «نصير الكفر والشرك والإلحاد فيلسوف ملحد ضال مضل كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين وحاول أن يجعل كتاب «الإشارات» لابن سينا بدلاً من القرآن وفتح مدارس للتنجيم والفلسفة وإلحاده عظيم.

(درء التعارض لابن تيمية: ٦٧/٥ + البداية والنهاية لابن كثير: ٢٦٧/١٣ + إغاثة اللهفان لابن القيم الجوية: ٦٠١/٢)

١١- الجاحظ: «كان سيئ المخبر رديء الاعتقاد تنسب إليه البدع والضلالات وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، وحكى الخطيب بسنده أنه كان لا يصلي ورمي بالزندقة».

(البداية والنهاية لابن كثير: ١٩/١١)

١٢- عباس بن فرناس: فيلسوف موسيقي مغنٍ منجم نسب إليه السحر والكيمياء وكثر عليه الطعن في دينه واتهم في عقيدته ورمي بالزندقة وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والموسيقى.

(المقتبس من أخبار أهل الأندلس لابن حيان القرطبي: ص ٢٧٩ + نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني: ٣٤٨/٤)

١٣- ابن رشد: «فيلسوف ضال ملحد يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع ويقول بقدم العالم وينكر البعث وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه «فصل المقال» و»مناهج الملة» وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة في «تهافت التهافت» ويعتبر من باطنية الفلاسفة، إلحادياته مشهورة»

(سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٠٧/٢١ + درء التعارض لابن تيمية: ١١/١ - ١٢٧ - ١٥٢)

١٤- محمد بن الشاكر: «فيلسوف زنديق اشتغل بالموسيقى والتنجيم من الذين ترجموا كتب اليونان وأبوه موسى بن شاكر وأخواه أحمد والحسن منجمون فلاسفة أيضاً».

(سير أعلام الأعلام للذهبي: ١١٧/٧)

١٥- ثابت بن قرة: «صابئ كافر فيلسوف ملحد منجم وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان ماتوا على ضلالهم».

(سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤٨٥/١٣ + البداية والنهاية لابن كثير: ٨٥/١١)

تكفير وقتل الفلاسفة والأدباء والمفكرين في أوروبا (أمثلة)

لم يترك المحاربون للعقل والتفكير في أوروبا طريقة إلا واتبعوها لمحاربة الفلاسفة وكل من ينادي بإعمال العقل والتأمل في الأشياء والموجودات ومحاولة فك ألغاز وجودها أو حركتها أو تأثيرها، وذهبوا بعيداً ناحية التكفير

وإخراجهم من الدين والملل بل قتلهم في مختلف أنحاء العالم، وقد كان سقراط أحد أهم ضحايا الدفاع عن قضايا العقل والفلسفة والتفكير، وهنا نماذج ممن ذهبوا ضحايا غياب العقل ومحاولاتهم إيقاظه أو محاورته على الأقل...

(١) سقراط - ولد (٤٧٠ ق.م - ٤٠٠ ق.م) وقيل قبل ذلك بعام.

من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية، والغريب أن سقراط لم يترك خلفه كتابات أو كتباً، وكل ما وصلنا عنه كان نقلاً عن تلامذته وأشهرهم (أفلاطون). ركز سقراط كعادة الفلاسفة على الأخلاق التي يعتبرها ركيزة الحياة الإنسانية. أسس ما يسمى بـ«المنهج السقراطي» الذي يعتمد السخرية من الأحداث والأشياء طريقاً للإصلاح، وهو منهج ينتشر اليوم بقوة على كل المستويات تقريباً، ويكفي أن نتأمل برامج (السوشيل ميديا) الحديثة واعتمادها على المنهج السقراطي الفلسفي. فضل سقراط أسلوب الخطابة على الكتابة، ورأى فيها تأثيراً كبيراً على الناس، وكان يرى أن الأشخاص هم محور الجمهورية والحكومة السياسية.
مات سقراط مقتولاً بالسم بعد أن حكمت عليه الجماهير، فقبل الحكم، ورفض الهروب من السجن دفاعاً عن منهجه والديمقراطية التي نادى بها، لكي لا يتنكر لما علمه لتلاميذه... قال عنه شيشرون: سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.

من أقواله:

- ليس المهم الحياة ذاتها، لكن المهم أن نعيش على حق.

- قد كنت رجلاً نزيهاً لذلك لم أصبح سياسياً.

- بالنسبة لي، فكل ما أعرفه أنني لا أعرف شيئاً.

- الحزم انتهاز الفرصة عند القدرة.

- نظام الأخلاق الذي يقوم على أساس القيم العاطفية النسبية هو مجرد وهم، وتصور مبتذل وليس في ذلك شيء صحيح.

- الطريق الأعظم للعيش بشرف في هذا العالم هو أن تكون فيه على ما تريد أنت.

(٢) هيباتيا السكندرية (٣٥٠-٣٧٠ تقريبًا - ٤١٥)

فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي تعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفة وعلم الفلك.

لا توجد معلومات مؤكدة عن تاريخ ميلادها لكن دراسات أجريت مؤخراً تشير إلى أنها قد ولدت عام ٣٧٠م بالإسكندرية. أي أنها كانت تبلغ ٤٥ عامًا عند وفاتها. يبدو أن هييباتيا كان تعرف باسمين مختلفين أو كان هناك طريقتان لكتابة نفس الاسم، الأولى هيباتيا والثانية هيباشيا. وقد كان هناك آنذاك امرأتان تحملان ذلك الاسم، هيباتيا ابنة ثيون السكندري، وهيباتيا ابنة اريتريوس. كان والد الأولى هو عالم الرياضيات والفلك الشهير ثيوس الذي عاصر ببس الرومي الذي عاش بالإسكندرية خلال فترة حكم الإمبراطور ثيوذوسيوس الأول. وقد اعتبر كُتّاب السيرة الذاتية لثيون، رئيس جامعة الإسكندرية، أنه كان فيلسوفًا.

كانت هيباتيا تتبع المدرسة الأفلاطونية المحدثة الفلسفية القديمة، لذا فكانت تتبع النهج الرياضي لأكاديمية أفلاطون في أثينا، التي مثّلها إيودوكيوس الكنيدوسي، تأثرت هيباتيا بفكر أفلوطين الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، الذي كان يفضّل الدراسة المنطقية والرياضياتية بدلاً من المعرفة التجريبية، ويرى أن للقانون أفضلية على الطبيعة. حياة العقل لأتباع أفلوطين كان الهدف منها الاتحاد مع الصوفية الإلهية.

عاشت هيباتيا في مصر الرومانية، وماتت على يد حشد من الغوغاء المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر والإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية. (موسوعة ويكيبديا)

(٣) - غاليليو جاليلي (ولد في ١٥ فبراير ١٥٦٤ - ٨ يناير ١٦٤٢).
عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا، نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة.

حكمت عليه المحكمة عام ١٦٣٣ بأنه يعترض على ما جاء في الإنجيل، على الرغم من معارضة جاليليو لهذه التهمة معللاً أنّ نظريته لا تعارض ما ورد في الإنجيل، وينقسم الحكم إلى ثلاثة أقسام:

- اتهام غاليليو بالاشتباه بالهرطقة.

- حكم عليه بالسجن لإرضاء خصومه الثائرين. وفي اليوم التالي خف الحكم إلى الإقامة الجبرية.

- منعه من مناقشة تلك الموضوعات، وأعلنت المحكمة بأن كتاباته ممنوعة.

اعتكف غاليليو في بيته وأمضى به بقية حياته وحافظ على عدم نقاش نظام كوبرنيكوس علناً. واهتم في عمله بدراسة حركة أقمار المشتري واتخاذها كأداة لقياس الزمن من أجل حل مشكلة خطوط الطول، ولكنه لم ينجح في تفسيرها. ثم حول التلسكوب إلى الميكروسكوب، وكان يراقب الأشياء بالمجهر مجرد مراقبة ولكن من غير اهتمام حقيقي.

في تلك الأثناء كتب غاليليو كتاباً بعنوان «علمان جديدان». وفيه كتب عن الكينماتيكا وهي علم حركة الغازات، و»صلابة المادة» الذي مدحه أينشتاين كثيراً. وسمي غاليليو جاليلي «أبو العلم الحديث». وأصابة العمى ١٦٣٨ وكان يعاني من فتق مؤلم وأرق، فكان يسمح له بالسفر إلى فلورنس للعلاج. (موسوعة وكيبيديا).

أخطاء التفكير والخطاب المنطقي

أحد أهم أخطاء الحوار المنطقي هو (التفكير الدائري)، وهو التفكير اللامنتهي في جدليته، والذي لا نهاية له، أي محاولة إثبات الشيء بدليل يبنى على فرضية صحة الاستنتاج.

لا أتفق بالجملة مع ما قاله الفيلسوف الفرنسي «كانت»، من أن المنطق ولد كاملاً وتاماً مع كبير الفلاسفة اليونانيين «أرسطو»، وأن شيئاً كبيراً لم يتغير ولم يطرأ على علم المنطق منذ ذلك الزمن وحتى زمنه هو، وذلك عندي يخالف المنطق ذاته، ويقلب الطاولة رأساً على عقب على ما جاء في قول «كانت»، فالمنطق يرفض بقوة الحكم على الأشياء بهذه الطريقة الإجمالية، إذ حتى علم الرياضيات قد قلب تاريخ علم المنطق وأسسه التي قال بها كثير من العلماء.
وللمنطق عدة تعريفات متقاربة، لكن أقربها إلى الدقة في رأيي هو التعريف الذي يصف المنطق بأنه: «علم قوانين الفكرة»، وهي عند «أرسطو» ثلاثة فقط هي:

- قانون الهُوية

- قانون التناقض

- قانون الوسط المرفوع

وعند غيره تصل القوانين للعشرات!

وتأتي أسس المنطق الأرسطي مشروحة على النحو التالي:

- قانون الهوية: الأشياء هي نفسها، كأن نقول (القلم هو القلم - الإنسان هو الإنسان - الطائرة هي الطائرة)

- قانون عدم التناقض: الشيء لا يمكن أن يكون (أ) و (لا أ) في آن واحد. إذ لا يمكن أن يكون اللون أبيض وليس أبيض في ذات الوقت.
- قانون الوسط المرفوع (الممتنع): إما أن يكون الشيء (أ) أو (لا أ) بمعنى أن لا وسط بين النقيضين.

ويأتي هذا القانون كأمر حتمي للقانونين الأول والثاني. كأن نقول (إما أن يكون اللون أبيض أو لا أبيض - إما أن تكون سيارة أو لا سيارة).

ولكي نفهم المنطق وقوانينه علينا البدء في فهم الأسس الأولية لتكوين المنطق والحوار المنطقي، إذ لا توجد نتائج إيجابية دون حوار منطقي يفضي إلى تكوين تلك النتائج التي يمكننا وصفها تالياً بالمنطقية. ويحتاج الإنسان إلى المنطق في كل شيء وكل جزء من حياته، ليثبت صحة الفرضيات أو التحركات التي يقوم بها هو شخصياً، أو يفسر في ضوئها تحركات الآخرين من حوله.
وليتم لنا الأمر بنجاح لا بد أن نتبنى أسس الحوار المنطقي، التي تبدأ أولاً بضرورة احترام الخصم، وتقدير كل ما يتعلق به، فمن غير المنطقي ألا تحاول الدخول في نقاش أو حوار مع الآخر في الوقت الذي تعتدي أنت عليه بالقذف أو التقليل من حجمه مهما كانت الدوافع، لأنك بذلك ستسقط أول متطلبات الحوار المنطقي المهمة، وهو (احترام الخصم)، ثم يعقب ذلك ثانياً محاولة (فهم الخصم)، والبحث عن نقاط الضعف التي لديه، وبناء إستراتيجيتك الخاصة في الرد عليه بشكل منطقي غير مندفع أو خارج عن الأسس الرئيسية للمنطق. كما أنه ليس بالضرورة أن يكون ردك معارضاً في حال رأيت أن الخصم يصل بشكل ممتاز إلى ما ستصل أنت إليه أيضاً، وهنا يكفي أن تعترف بقوة ما لديه وتؤيد ذلك لينتهي الحوار إلى النقطة الأقرب بينكما، في الوقت الذي يمكنك فيه أن تنقض دليله في حال كان لديك ما يُثبت أنه على خطأ، ولكن شريطة أن تجتنب الوقوع في أخطاء المنطق في

الحوار دائماً.
وأخطاء المنطق كثيرة، سأتحدث عنها بالتفصيل حسب ترتيب معين أفترضه لنتواصل في الحوار الذي بيننا. فأول أخطاء المنطق هو (الاعتماد على المصادر غير الموثوقة)، فلا يمكن بأي حال محاولة إقناع الخصم بصحة ما لدي، استناداً إلى مصادر افتراضية غير موثوقة، فهذا عبث حواري خطير يرمي بالمنطق إلى خارج سياقه. وثاني أخطاء المنطق الفادحة هو (أن تحاول إثبات أمر ما لشهرته وصيته)، مثل أن تقول إن اللاعب دييغو مارادونا (أفضل لاعب كرة قدم على الإطلاق) لأنه مشهور فقط، فهو وإن كان كذلك إلا أنه يجب عليك توفير ما يدعم ذلك بالمصادر الموثوقة، وهي التي تحدثنا عن أهميتها أولاً، ويأتي الخطأ الثالث متمثلاً في (محاولة إثبات الشيء من خلال السيطرة على مشاعر الآخرين)، والذي يعتمد على مدحهم أو تخويفهم أو تهديدهم، فهنا تسقط منطقية الحوار تماماً ويذهب إلى خارج (الموضوعية). ثم يأتي أحد أهم أخطاء الحوار المنطقي وهو (التفكير الدائري). والتفكير الدائري هو التفكير اللا منتهي في جدليته، والذي لا نهاية له، أي محاولة إثبات الشيء بدليل يُبنى على (قرضية صحة) الاستنتاج، وليس دليلاً حقيقياً بالدرجة التي تمنحه مرتبة الدليل، أي إيهام المتلقي بوجود دليل مبني على استنتاج تسلسلي صحيح ومنطقي، مثل أن تقول: «إن صعودك للجبل خطر»، وحين تسألني لماذا هو خطر؟ أجيبك: «لأنه خطر وضد السلامة، وهكذا..» وهنا لم أجبك بمنطقية تعتمد الوقائع والأرقام أو التجربة والاستنتاج. لأن «ما بُني على باطل فهو باطل».
ومن أخطاء المنطق الكبيرة (أن تتجنب إحضار الإثباتات)، وهو الاعتماد على عدم وجود أدلة كافية تنفي استنتاجك الشخصي، وهنا أنت في الواقع تتجنب إحضار أدلتك التي تؤيد نفيك أو إثباتك لأمر ما. وسادس تلك الأخطاء هو (التعميم الجماعي)، أي أن تعمم سلوكاً ما على جميع المنتمين لفئة بعينها، كقولك: «كل الغرب فاسدون وكفار»! فهذا غير دقيق بتاتاً. وسابع هذه الأخطاء يكمن في خطأ فهم وضع (التزامن والسببية)، بمعنى أنه ليس صحيحاً أن الحدث الأول هو السبب في وقوع الحدث الثاني دائماً، أي بما أن الأمر الثاني يأتي بعد الأول، فليس ذلك دليلاً على أن الحدث الأول هو سبب حدوث الثاني. فقد لا أذهب إلى النوم حتى إذا دخل الليل، أي أن دخول الليل ليس شرطاً في نومي، فقد أنام نهاراً. هذه بعض الأخطاء التي يستغلها البعض أسوأ استغلال، فهناك على الدوام مكامن ضعف خطابية يستخدمها (الديماغوجيون) للتلبيس على العامة، من خلال التلاعب بالألفاظ والكلمات، واللعب على العواطف الإنسانية، وضعف قدرات البعض الذهنية، مستغلين اللحظات العاطفة الإنسانية الجياشة، وهي في الأصل ثغرات في بنية الحوارات العامة، التي تريد أن تصبح بأي شكل حوارات منطقية! وكثير من

كتابات الفلكي الأميركي (كارل ساغان) ما يوضح بقية الأخطاء الشائعة في هذا الجانب، لكي لا ندع مجالاً لمن يحاول استغفالنا بطريقة سمجة.

الفكرة ضالة العربي

أحد أكبر مآزق العقلية العربية، يكمن في ضعف تبيين وفهم الفروقات بين مفهوم «الفكر»، ومفهوم «الفكرة»، فهما على الرغم من ترابطهما الوثيق وتشابههما على مستوى الشكل واللفظ، إلا أن الاختلاف بينهما في المعنى والنتائج عميق.

قد يكون كل شيء في العالم قد جاء نتيجة فكرة، وأن العالم سيستمر بوجودها، وسيحدد تقدمه أو تأخره بناء على نسبة صواب وخطأ الفكرة، وحجم الاحتياج الذي يبعثها، إذ الفكرة عندي «ما هي إلا تمرد ناجح على حيثيات الزمان والمكان، وأعدها أعلى مراتب تفاعل العقل البشري مع الموجودات والمتخيلات، وتلبية لنداء الاحتياج الطبيعي لإتمام التكامل بين الأشياء. فالعقل صفة حسية وليس مكوناً مادياً ملموساً، وتفاعل العقل مع الاحتياج يرتب لتخلّق الفكرة، تلك التي يمكن أن تكون خلاقة على مستوى الفائدة الإنسانية.
والفكرة في الواقع إضاءة خاطفة تأتي من وهج المستقبل والتوق إليه، وترتبط بالماضي على خلفية الاستنتاج والاستفادة من التجربة وتراكماتها الايجابية والسلبية، وترتبط بالحاضر والمستقبل من منظور الاحتياج والاستعداد. وليس بالضرورة أن يكون ناتج فكرة ما صحيحاً، إذ إن النواتج الخاطئة هي إجابات منطقية أيضاً، لكنها غير موفقة فقط، وهي كذلك محصلة معرفية نتيجة تطبيق فكرة سابقة ما. ويُستدل بها للوصول إلى النواتج الإيجابية الصحيحة لاحقا «الحاضر والمستقبل».
وإذا دققنا النظر في كل الأشياء الموجودة في العالم من حولنا، سنلاحظ أن بينها علاقة وترابطاً وثيقين وهائلين جداً، نستطيع وصفه بالتكامل الطبيعي المنطقي. لكن هناك سؤال مُلح يبحث عن إجابته الجميع تقريباً، يتركز حول تعريف الفكرة وماهيتها.
وفي رأيي إن محاولة البحث عن تعريف محدد للفكرة، أو ماهيتها، إنما هو من قبيل اللا معنى، لأن «تحديد» ماهية الفكرة سيضعها في إطار الحجم والكمية، وهو ما لا يمكن أن تتقبله مبادئ الفكرة بكل غايتها ونيّاتها وتطلعاتها، فالفكرة حُرة لا تقبل القيد مطلقاً، وترفض أية محاولة لتقييد فضائها بالقطعية.
وفي جانب الحديث عن مصادر الفكرة، يقول بعض الباحثين، إن مصدر

الفكرة عبارة عن طاقة كهربائية تأتي على قدر حجمها وتفاصيلها، وهذا اكتشاف عظيم يؤكد التصاق الفكرة بالدماغ مباشرة، ويدحض القول بأن مصدر الفكرة وباعثها قد يكون القلب.

يحدث ذلك في الواقع نتيجة الخلط بين عدة مفاهيم منها ما يتعلق بالفكرة ومصدرها، ومنها ما يتعلق بمفاهيم أخرى كمفهوم العواطف والغرائز مثلاً.

فالفكرة في حد ذاتها عمل ذهني أصيل، لا تتحكم فيه عواطف بعينها أو غرائز بأصلها، وهو ما يؤكد تحرر الفكرة من أية ملكية أو تبعية محتملة. لكنها قد تقع ضحية لعبودية موجهة أحياناً، وفي ضوئها يمكن أن تُحدد سمات وصفات اجتماعية كاملة، فمثلاً المجتمعات الإنسانية التي يسيطر عليها فكر أحادي، تقع مباشرة تحت مظلة ذلك الفكر الأحادي -الإقصائي بطبعه-، وهي عبودية فكرية موقتة تزول بزوال المؤثر عادة. وفي أجواء كهذه لا تملك الفكرة إلا هامشاً بسيطاً للتحليق، وعليه يكون ناتجها مقابلاً وموازياً لحجم ونوع ذلك الهامش، ويشكل ذلك نتيجة منطقية للشح المعرفي والثقافي لأي فكر أحادي إقصائي مسيطر، الأمر الذي يُعقد الحصول على نتائج إيجابية ممكنة على الدوام، فالمجتمع الخائف مثلاً سيظل خائفاً على الدوام، طالما بقيت سيطرة عواطف الخوف مُكرسة على عقليته، والمجتمع المفتوح الذي يتواصل مع العالم وأطروحاته، سيندفع متماهياً مع التنوع الفكري، وسينتج على كل المستويات وفي كل الاتجاهات، بعيداً عن التصنيف أو التوجيه المُمنهج. لذلك نرى المجتمعات العربية تتأخر كثيراً عن نظيراتها الغربية والعالمية، ليس لقصور الأفراد فيها، بل لقصور عمليات التنوير والتثقيف والمعرفة، ومحاصرة بواعث التفكير الإبداعية وتطبيقاتها، إذ كيف يمكن أن تأتي الفكرة في ظل حصار العقل الذي يؤدي إلى موت توق البحث عن الفكرة باستمرار، أو لنقل إلى سقم العقلية الاجتماعية بشكل عام، قبل أن ندرس ونُعد آلية وطريقة التفكير في الأصل، ونمنحها المساحة الكافية للحركة والتجريب التطبيقيين. وهذا يبتعد بنا عن جوهر التفكير المثالي المنطلق. وأعتقد أن أحد أكبر مآزق العقلية العربية، يكمن في استمرار ضعف تبيين وفهم الفروقات بين مفهوم «الفكر» ومفهوم «الفكرة»، فهما على الرغم من ترابطهما الوثيق وتشابههما على مستوى الشكل واللفظ، إلا أن الاختلاف بينهما في المعنى والنتائج عميق وشاسع جدًا.

تحييد العقل.. انقلاب على الأخلاق

ليس من شيم العقل الأخلاقي التفرد بصيغة فكرية واحدة، وفرضها بغرض تكوين نسق اجتماعي أحادي الثقافة في الوقت الذي يمثل فيه العقل الحقيقة الفصل لتقييم وتصنيف الإنسان بكينونته وماهيته، ويضعه تاريخياً وطبيعياً على رأس هرم الموجودات الكونية بأسرها -على افتراض أنه أذكى المخلوقات المعروفة-، إلا أن المفارقة العظيمة تأتي من عمق المخلوق الأذكى نفسه (الإنسان) حامل العقل، وممارساته المُنكرة للقيمة النوعية التي يمثلها له العقل كفارق مهم لا جدال فيه، متخذاً من (نسبية العقل) حجة كافية لتقييده، بل يذهب إلى حد إلغائه أحياناً! وهذا مروق خطير عن المنطق، فالإنسان بوصفه الأذكى نتيجة لتفرده بامتلاك العقل، وبغير ذلك سيتراجع في الترتيب إلى منزلة الكائنات غير العاقلة.

هذا المدخل إلى تفسير العلاقة الوثيقة بين العقل والأخلاق هو في الواقع محاولة لاقتناص مساحة افتراضية تهتم بالمقومات الأساسية بين الإنسان وواقعه. وتأمُّلٌ قد يوصلنا إلى طريقة رأب الصدع الأخلاقي بين الإنساني وبين المتغيرات التي تفرض عليه أحياناً المروق الأخلاقي على الإنسان نفسه. فحقيقة الإنسان الأخلاقية غير قائمة على فرضيات بقدر انطلاقها من أرضية صلبة للشروط الأخلاقية، وهي صارمة فيما يخص ذلك.

في الشعر قال شوقي: «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت.. فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا»، وهذا مبدأ رائع وقول سديد لوصف الحالة الأخلاقية وقيمتها على صعيد وجود الكيان وما يترتب عليه.

ويصنف علم النفس السلوكي (السيكولوجيا) علاقة (العقل - الأخلاق) كمحور رئيس في المكون الكلي للشخصية الإنسانية وترتيبها، ويضعها في مرتبة متقدمة لها ثقلها وتأثيرها النوعي في تشكيل آلية التواصل ونوعيتها مع الآخر، وصميم المنطلقات لتلك العلاقة ومحورها الأول هو العقل، ونتائجه بكل أشكالها كانت على الدوام هي أصل وروح الصورة للحدث. فالحضارات الإنسانية على امتداد تاريخها لم تخرج عن ما تمخض من أطروحة الحوار الأزلي بين العقل والأخلاق، وقد كان لقرارات حضور العقل ببعده الأخلاقي اليد الطولى في بناء أنساق الأحداث السلمية ولحظاتها التاريخية، وكان وراء ارتقاء المعرفة الإنسانية الخلاقة ووعيها. في الوقت الذي أدى فيه غياب العقل بسموه الأخلاقي إلى ظهور العدوانية واستبدادها واستشرائها بهمجيتها المقيتة المختلفة. لقد كان لتغييب العقل أكبر الأثر في انهيار منظومات عديدة من الحضارات الإنسانية وتدميرها، متسبباً باندثار جزء كبير من الذاكرة الإنسانية.

فالعقل بشقي تكوينه المفترضة (الوعي والمعرفة) يُعد جدلياً كونه باحثاً عن الحقيقة التي تصطدم دائماً مع إشكالات التطبيق. فالعقل بقدراته الهائلة يرفض بطبيعته تحجيمه وتحييده حتى وإن كان في بعض جوانبه نسبياً. والمتذرعون بحجة (نسبية العقل) ومحاولة إقصائه على نحوٍ ما، إنما ينكرون

على الإنسانية في الواقع فرصة استثماره بالشكل الأمثل لبناءً المنجز الحضاري، ويحاولون بتحركهم في (منطقة اللاوعي) تشويه نواتج حضارة العقل الأخلاقي، من خلال الميل إلى لغة اتصالية أحادية مبتورة، وفق إيديولوجيا منحازة تتفق مع ميول بعينه، قد تكون في ظاهرها مُتزنة وسوية حسب ما ترفعه من شعارات. غير أن في ذلك خروجاً عن جادة العقل الجمعي وأخلاقياته، ونشوزاً عن سلوكيات الوعي الإنساني ونداءات الديناميكية الاجتماعية، إذ ليس من شيم العقل الأخلاقي التفرد بصيغة فكرية واحدة، وفرضها على الكل بغية تكوين نسق اجتماعي يعتمد نقطة التعايش هدفاً أساسياً لبنيته وتركيبته.
لقد فشلت تاريخياً كل المحاولات الساعية إلى تأطير جموح العقل وتحييده، والأخذ بالأطروحات الميتافيزيقية (الماورائية) كأساس أولي قبل العقل لتفسير الظواهر الطبيعية، أو تلك التي لم يجد لها الإنسان تفسيراً في فترة زمنية ما. لكنه مع مرور الزمن أدرك أن للعقل قيمته النوعية في وضع كثير من الأمور على مقربة من ماهيتها وحقيقتها، قاطعاً بذلك جزءاً مهماً من الطريق نحو النضوج الفكري الأخلاقي الواعي بمكنون المكونات وتراكيبها، ومن ذلك نجاحه في فهم الأنساق الاجتماعية وحاجتها إلى لغة اتصالية جامعة، وضرورة إيجاد الصيغ الكفيلة بقبول توجهاتها وفهم ما هي عليه، والبحث الدائم عن الحلول والبدائل الكفيلة بحفظ توازن مُقنع، يضمن استمرارية كل الأطروحات والجدليات وفق شروط ترتضيها كل الأطراف. وهذا أساس لقيام حضارات ذات طابع إنساني مستمر ومتنام، «فالبناء الذهني حتى في حال اندثار أصله تبقى آثاره مستمرة». وهو ما يدحض صلف المنادين بالحضارة العالمية الأممية الواحدة، فالعقل لن يقبل فكرة القيمة الأحادية لتشكيل كيان فكري أوحد منحاز، لكن مثل هذه الأطروحات تليق «بالروبوتات» والآلات وليس الإنسان قطعاً.

سلطة العقل وفضاء الروحانية

اليوم تكرر بعض المجتمعات الإنسانية بدايات نفس المشهد، ولكن هذه المرة على الوجه الآخر المنتصر للعقل والعقلنة على حساب الجوانب الروحانية، في عملية إعادة إنتاج هزلية للفكر الأحادي بشكل مقلوب بين سلطة العقل وفضاء الروحانية نقطة جوهرية، تجبرني على القول بأن أية محاولة لإقصاء أحدهما عن الآخر، سيفقد كليهما قيمته الوجودية، فإقصاء الروحانية مثلاً، سيضعف وربما أفقد العقل القيمة المنطقية لوجوده كمقيم للإدراك بكافة خبراته ومعارفه، ومعها سنعود إلى حالة البحث عن اللحظة المتصالحة مع الوجدان، وتفسير العلة من وجود الأشياء وطريقة التواصل مع جمالياتها،

ومنذ فجر التاريخ الإنساني لم تهدأ حدة الجدل والصراع بين العقل والروحانية، ولخص سعي الإنسان الدائم وبحثه عن الحقيقة وتجلياتها، عطشه إلى الإبداع والنورانية والسكينة معاً، إذ في الوقت الذي استولت فيه متغيرات اليوميات المتسارعة على طريق خطوات البشرية، بحوادثها التي تُخل أحيانا بحالة الطمأنينة والتوازن، وهي التي تتقاطع معها في أوقات تاريخية كثيرة، برزت كظواهر عجز الإنسان عن إيجاد تفسير لماهيتها وكيفيتها، ما تسبب في طغيان كفة على أخرى، وغلب على مشهد كثير من المجتمعات الإنسانية وتفاصيلها خيار التوجهات الروحانية بكل جوانبها وأبعادها، لتشكل في عمقها ثقافات روحانية مسيطرة عدوانية في معظمها، تبدأ بالتراتيل وتنتهي بالقرابين البشرية في أقصى حدودها، منتجة طبقية وإقصائية تشرعن لانتشار الخرافة على حساب العقل والمنطق، وتكرس لمبادئ الاستحواذ والظلم والإقطاعيات، حتى فقدت معه تلك المجتمعات الكم الأكبر من الحس الإنساني والأخلاقي، لتنحسر فضيلة تأمل الصيغ الممكنة والمثيرات المكونة لحالات إبداع العقل، فيما صبغت الأطروحات «الميتافيزيقية» بخطابها «الدوغمائي» الثقافة العامة لتلك المجتمعات.
والروحانية في الغالب توصف على أنها حالة تحليق تتألق وتزدهر خارج حدود العقل والمنطق، وتتعامل مع المتعلق بالروح في البعد الميتافيزيقي «الماورائي»، وتشجع وتؤمن بالقوى الخارقة المتعدية لحدود الطبيعة والمدركات، كقوى الآلهة الوثنية اللامحدودة، وغيبيات علم الفلك والأبراج، وإشاعة التسليم بها دون النظر إلى اعتبارات التفسير العقلي، وتعدّ الروحانية أهم الدوافع المحرضة للإبداع إذا ما تناغمت مع قدرات العقل البشري وأطروحاته، إلا أن نزعة السيطرة العمياء للروحانية، وتفضيلها عند المستفيدين من طغيانها، قد تسببت في تغييب العقل البشري، وجعلته يعيش أسوأ فتراته التاريخية على الإطلاق آنذاك.
اليوم تكرر بعض المجتمعات الإنسانية بدايات نفس المشهد، ولكن هذه المرة على الوجه الآخر المنتصر للعقل والعقلنة على حساب الجوانب الروحانية، في عملية إعادة إنتاج هزلية للفكر الأحادي بشكل مقلوب، متناسية حقيقة أن العلوم على اختلافها وتنوعها، لا يمكن لها اختزال الإنسانية وعظمتها في كل الأحوال؛ لأن ذلك من شأنه أن يحول الإنسان إلى مجرد آلة فجة عديمة الإحساس ومعطلة الإبداع، ويضعها في أدنى مراتب الخلق والوجود.
وفي تاريخ التراث العربي، يجسد حلاج بغداد الحسين بن منصور، وأبو حامد الغزالي، أبرز وأقوى لحظات الصراع العقلي الروحاني، بل أصدقها على الإطلاق، والنهايات المصيرية المتباينة لكل منهما، تؤكد على شراسة الاستفهامات التي أنتجها الجدل بين عقلنة الأشياء وروحنتها، وكان لردود أفعالها قسوة فسرت فيما بعد: لماذا؟ وكيف؟ وأين؟ ومتى؟، وتحكي الفترات التاريخية العربية والإسلامية، التي تم خلالها تحييد العقل وتضعيف الاعتماد

على رؤيته للنص الديني والمعتقد، وتغليب قاعدة الأخذ بالنقل على حساب العقل؛ الانهيار الفكري والحضاري بعد عملية الصعود في القرون الخمسة الأولى.
في رأيي أن العقل والروحانية توأمان متلازمان تلازم القراءة والكتابة، وبغياب أحدهما يفقد الآخر قيمته النوعية كمؤثر ومحرض إيجابي، وتنحسر حد الغياب المنزلة الإبداعية لأي منهما، واحترام الطبيعة التكاملية بينهما مهم جدا لتحقيق حالة الاستقرار؛ وتكوين منطلقات تُفضي إلى نواتج إبداعية نوعية.

جوائز التفكير المغيبة

أقوى الأغلال هي تلك التي لا تسمح للعقل بالتفكير، فالعقل المريض أسوأ من الروح المريضة.

الجوائز مفرحة ومهمة، لكنها بالمقابل مكلفة وثمنها مختلف، لكن ثقافتها مغيبة تماماً عن وعي الشوارع العربية، وحتى نجني جوائز تغيير فكر المجتمعات العربية، يلزمنا الكثير من العمل الجاد على أصعدة كثيرة، لنستطيع ولو قليلاً، فك الجمود الذي لازم الفكرة والفكر الأحادي له عبر قرون، وكسر الطوق عن رؤيته للحياة من خلال نمط أحادي على مستوى التفكير والخطاب اليومي للشارع، هذا الذي اختلطت عليه مفاهيم الحياة وتغييرات واحتياجات الزمن، وأضاع جهده في الركض خلف العبارات والشعارات الغائرة في الأمنيات والتفكير في الغيبيات والماضويات على اختلافها، أكثر من إعماله التفكير في حاضره لاستشراف مستقبله.

تبدو الصورة واضحة بالنسبة لتوجهات الفكر المتخلف في الشوارع العربية، ووقوعها تحت سيطرة موجهين انتهازيين، ليس لديهم أدنى استعداد للتنازل عن أنملة مما يعتقدون أنه مكتسبات خاصة، جعلتهم يعتقدون بأهليتهم للقيادة في أشكالها وأنماطها واتجاهاتها الفكرية المختلفة، سياسية ودينية واقتصادية وعلمية وثقافية، إلا أننا في الوطن العربي لا نملك سوى نمطين فكريين للقيادة لا ثالث لهما، تمثلهما القيادات السياسية الدكتاتورية والدينية في شكلها التاريخي، -باستثناء بعض الدول التي باتت تغرد خارج السرب من خلال الإصلاحات التي تقوم بها بجدية-، وهما نمطان تسلطيان إذا ما وقعا تحت سيطرة مستبد أو انتهازي، اعتدنا على رؤيتهما عبر التاريخ الإنساني، وأكدت نتائجهما الدموية الكارثية أممياً واجتماعياً قبحهما، وكانت نهاياتها مأساوية ومروعة. وعلى الرغم من ذلك، يصر هؤلاء الأحاديون الانتهازيون،

على التعامل مع الواقع بصيغ الماضي ورتابته، وما يساعدهم على ذلك هو استسلام المجتمعات العربية لهذا النموذج المستند إلى قوة تاريخية ضاغطة على الوجدان الاجتماعي وعواطفه، أكثر من تأثيرها على العقل، ذلك النائم الذي لا تريد له الاستيقاظ مطلقاً، لأنه سيقلب الطاولة رأساً على عقب على كل أحلامهم ومشاريعهم السلطوية.

لكن الشوارع العربية لا يبدو أن لديها الرغبة الكاملة بعد، في الحصول على الجوائز التي تحتاج إلى مجهودات وتكلفة من أي نوع، وتفضل على ذلك الحصول على الهبات والمكرمات والمنح، ولا ترغب في تحويل مسارها الفكري والاجتماعي والعلمي بما يوازي نصف أحلام المستقبل على الأقل.

وأظنها تفضل الحلول التي تأتي على شكل (فرض) إصلاحات في أشكالها المختلفة -وإن اختلفنا على ماهيتها ومدى الحاجة إليها- داخل المجتمعات العربية، بدلاً من تركها تتحرك برتابة مملة، تحدد توجهاتها جماعات الفكر الراديكالي، التي لم تقدم شيئاً غير التخلف والتراجع الفكري، فالمجتمعات العربية لا تبدو في الوقت الراهن قادرة على صنع التغيير من داخلها على مستوى الأفراد، وتشعر بحاجتها الدائمة إلى التوجيه المستمر لما عليها فعله، والكيفية التي يتم بها ذلك الفعل، لأن الفكر العربي في أصله ليس فكراً ثقافياً تنموياً واقعياً مؤثراً على الفرد قبل المجتمع، وهذا جزء من ثقافة تاريخية طويلة، يصعب في الواقع شرحها كمفهوم فكري بمعزل عن العودة إلى جذوره التاريخية، لأن الفكر العربي شمولي وغير واقعي، ويرزح تحت سيطرة العواطف، وتبدو مسؤولية القيادات السياسية المعتدلة على هذا الجانب أكثر من المسؤولية الثقافية في الوقت الراهن على الأقل، للقيام بمهام التغيير، القائم على سن القوانين الإصلاحية وفرضها داخل مجتمعاتنا العربية المتخلفة في نظمها وأنظمتها الاقتصادية والسياسية وحتى الثقافية، التي راهنت على المثقف الذي خذلها كثيراً ولا يزال، خصوصاً بافتقاده للتركيز على مفاهيم الثقافة الأربعة، الفكر والدين والعلاقات الإنسانية والعناصر المادية.

والواضح بموازاة ذلك، أن مشاريع الفكر والتعليم التربوي العربي لم تنجح أيضاً في نقل التفكير إلى مراحل الاستفسار والاستفهام في كيف ولماذا وإلى متى وأين، وهي النقاط الجوهرية المسؤولة عن تكوين ثقافات التنموية اجتماعياً وفكرياً واقتصادياً، يمكن لها أن تقلب موازين الحاضر والمستقبل للأمة، وهذا العجز هو نتيجة حتمية لمشاريع السيطرة السياسية ذات الحس الأمني، ونموذج الدولة الثيوقراطية العتيقة، التي سقطت تاريخياً في تقديم منجز حضاري لأممها.

الفصل الثالث

الثقافة بوصفها أفكاراً تنويرية

أزمة فهم المصطلح في العقل العربي والإسلامي

الفلسفة.. غائب في الضمير العربي

الثقافة بوصفها أفكاراً تنويرية

يتمثل الهم الأكبر في خطورة اتساع الفجوة بين المثقف والثقافة ومقاصدها، وهو ما يترتب عليه اتساع الفجوة بين المثقف والشارع المعني بالتنوير، والحالان كأنما يسخران من المتلقي المنتظر على الطرف الآخر من المسافة بين النقطتين الثقافة في معناها العربي المتداول هي «صقل النفس والمنطق والفطانة، وفي قاموس اللغة العربية: تأتي من مصدر ثقف نفسه وثقف، ومنها الحذق والمهارة والإتقان، وثقفه تثقيفاً أي سواه، وثقف الرمح، تعني سواه وقومه. ولطالما استعملت الثقافة في عصرنا الحديث هذا للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. فالثقافة لا تعد مجموعة من الأفكار والمزاولات فحسب، ولكنها (نظرية في السلوك) مما يساعد على رسم طريق الحياة، وبما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، والوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تتميز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب، وإجمالاً فإن الثقافة هي كل مركب يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات». وهذا التعريف يتوافق مع التعريف الوارد عند آرنولد ماثيو ١٨٦٩، في كتابه الثقافة والفوضى.

وتتأثر الثقافات داخلياً بكل من القوى المؤيدة للتغيير والقوى المناهضة للتغيير، كما تتأثر تلك القوى بكل من البناء الاجتماعي والأحداث الطبيعية، كما تشارك بدور كبير في استمرار الأفكار والممارسات الثقافية ضمن الأنظمة الحالية، والتي تكون عرضة للتغيير في حد ذاتها. (اونيل دى. ٢٠٠٦. «عمليات التغيير»).

ومن وجهة نظري، لا أتحفظ على الفهم العربي لمعنى الثقافة، ووصف تعريفها بأنه (صقل النفس....)، ولربما عاد ذلك إلى تماهيه مع ما ورد في الآية القرآنية: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وإن كان ذلك قد

ورد كمفهوم شامل تماماً للثقافة بكليتها لا بتفاصيلها، وأرى أنه لا يمكن أن تكون الثقافة بكل مفهومها الواسع معزولة عن اليوميات التي تبنيها وتشكلها فعلياً ممارسة الأفراد والجماعات في كل أمة، وهي في النهاية واجهة البناء الظاهرية لصورة المجتمع وتوجهاته، الذي تتشكل فيه مجموعة من الأنساق المختلفة قد تحمل الشكل الثقافي له، لكن ذلك من وجهة نظري أيضاً لا يحمل ضمنياً قيمته الأخلاقية، إذ إنها قد تكون مخادعة للذات أساساً، قبل أن تكون مخادعة للمجتمع الذي تنشأ فيه، والخطورة لا تكمن في استمرارية تشكلها وحسب، بل تمتد إلى حالة قبول البيئة الحاضنة لها على كيفيتها دون مقاومة، ما يعني تحول البيئة الحاضنة إلى أرض خصبة، تسمح بانتعاش وتغلغل تلك الأشكال الجديدة.

والسؤال.. لماذا وكيف تنشأ هذه الأنساق غير السوية أو غير المتصالحة مع المعنى النبيل للثقافة، والتي تتحول إلى شكل معبر يطلق عليه ثقافة؟

في الوقت الراهن يتمثل الهم الأكبر في خطورة اتساع الفجوة بين المثقف والثقافة التنويرية ومقاصدها أولاً، ويترتب على ذلك في المقابل زيادة في عمق الفجوة بين المثقف والشارع المعني بالتنوير الثقافي، وكلا الحالين كأنما يسخران من المتلقي المنتظر في الغالب على الطرف الآخر من المسافة بين النقطتين! وهذه الحالة سلوك متعال لا يعبر عن أبعاد فكرية ثقافية واعية ومقتدرة. وهنا لا بديل لنا في الواقع عن مجابهة هذه الأنساق السلبية من البناء، والمسماة عرضاً ثقافة، والتحرك بموازاتها لنتمكن من فهمها، ومن ثم تفكيكها مرحلياً لنضمن شل حركتها وعدم تمددها عمودياً وأفقياً، لأنه من الأفضل لنا أن يتوالى هدم غير المرغوب فيها أولاً بأول، وبناء أخرى قادرة على التعبير إيجابياً بشكل أكثر جمالاً وتعبيراً عن الذات الإنسانية، بدلاً من القبول بها تحت مبررات مصطلح الثقافة الفضفاض، فبقاء فكر ثقافي متعال يعني انهيار أخلاقيات المبدأ الثقافي التنويري برمته، وبالتالي لا نعود أمام مشهد يحترم الشريحة المعنية بالتنوير، وإنما تداعيات لمشهد موهوم بالفكرة الثقافية وهديرها المفاجئ لا أكثر.

لهذا أرى أن مرتكزات الوعي الثقافي الرئيسية لا تخرج عن أربعة عناصر جوهرية، تتمثل في:

-الفهم
- الإدراك
- الأخلاقيات
- التطبيق

ولكل عنصر منها له منطلقاته المنطقية، المبررة لوجوده ضمن التكوين الثقافي الإيجابي، لتكون الثقافة فعلاً تنويراً واقعاً، يتزعم الشوارع الإنسانية بلا حدود، وتترجم لاحقاً كممارسات تطبيقية، تعطي الانطباع الأمثل لمنجز الوعي بالمصطلح والمفهوم الثقافي، وسأحاول في هذا الفصل قدر المستطاع تسليط الضوء على التنوع الكبير للمفهوم الثقافي ومصطلح الثقافة، في محاولة لبناء صيغة ومقاربات قد تساعد على ردم الفجوة بين المثقف والثقافة والمتلقي.

أزمة فهم المصطلح في العقل العربي والإسلامي

اللغة العربية وقعت في أزمة المصطلح وتباينه وحداثته وتنوعه، نتيجة للمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على العالم بأسره، وطغيان مصطلحات اللغات الأخرى الأساسية على الحياة العامة تُعد اللغة إحدى أهم طرق التواصل الإنساني، كما يصنفها علماؤها منذ البدء الأول لظهورها، وهي طريقة تواصلية بين جهة وأخرى أياً كانت، أو هي مجموعة النبرات الصوتية التي تشكل في مجموعها مخارج صوتية بعينها، تختلف من ثقافة إلى أخرى. كما قيل في تعريف اللغة أنها نظام صوتي يمتلك سياقاً اجتماعياً وثقافياً له دلالاته ورموزه، وهو قابل للنمو والتطور في كل الاتجاهات، ويخضع في ذلك للظروف التاريخية والحضارية التي يمر بها المجتمع كمجموعة تتأثر بالمتغيرات.
وكعادة كل العلوم الإنسانية التفاعلية فإنه لا تعريف محدد لـ(اللغة) حتى اللحظة، ويُعزى سبب ذلك إلى ارتباط اللغة بالكثير من العلوم النظرية والتطبيقية كما يقرر ذلك المتخصصون في علومها المتداخلة والمختلفة.

واللغة التي أتحدث عنها هنا هي لغة التخاطب الصوتية للإنسان، والتي تعتمد الحرف والكلمة المبنية كوسيلة تعبيرية عن المضمون والمعنى، من خلال شكل الحرف والعلامة والدلالة، وتُعد الأخيرة رفيقة أصيلة تسير معها بشكل تناظري صرف، لا يمكن فصلهما عن بعضهما بأي حال، والمقصود هنا هو (لغة التواصل البشرية المتعددة وصلاتها ببعضها).
ويمكن أن نصف العلوم التصنيفية الدارسة للغة، بـ(المنهج المقارن) الذي ظهر في أوروبا في بدايات القرن التاسع عشر على يد الألماني (فريدريش شليجل - كاتب وشاعر وناقد ألماني. ولد عام ١٧٧٢ في مدينة هانوفر، ومات عام ١٨٢٩، يعتبر المنظر الحقيقي للرومانسيين الأوائل)، والقائل عن تشابه اللغات العالمية وتأصيل فرضية صلة القربى بينها جميعاً، ويتبنى (المنهج المقارن) محاولات إيجاد علاقة ونقاط تقارب بين اللغات التي لم تثبت صلات فيما

بينها من أي نوع، كفكرة تفترض أن حالة التطور المستمر للغات العالمية، يؤكد على حتمية تلاقيها في جذور تاريخية ما، كنتيجة لسيطرة ثقافة ما في زمن ما، تفرض شكلها ومضمونها على قريناتها، مؤسسة بذلك لجذور وروابط جديدة وهكذا...
واللغة العربية من بين إحدى أهم اللغات الاتصالية العالمية، كلغة حية وثرية بالقدر الذي يجعلها من بين اللغات الأكثر تداولاً على الصعيد العالمي، وتُشكل محوراً مهماً للكثير من الدراسات اللغوية الإنسانية المندرجة تحت مظلة علم اللسانيات.

وعلى الرغم من التداخل الحاصل أحياناً بين اللغات العالمية نتيجة اتصال الحضارات فيما بينها، إلا أن اللغة العربية سجلت مواقف متباينة (بين التماهي والارتباك) فيما يُعرف بأزمة المصطلح، واختيار التعريف المناسب للجديد والطارئ الحضاري (سياسياً واقتصادياً وصناعياً وثقافياً وفكرياً...إلخ) على اليوميات الاجتماعية العربية.
إلا أن اللغة العربية وسط هذا الزخم والمد الثقافي العالمي، لم تشهد التوسع الملفت للأنظار كلغة يتحدث بها قرابة نصف مليار إنسان، ربما لأن نضجها خضع في بعض أحواله لمعايير معينة، منها وأهمها ما كان مرتبطاً بالقرآن كما يقول من يربطونها مباشرة به، فقيدت بعض جوانبها وحجرت على فكرة تطورها بما يوازي المتغير في الزمن.
لتنضم اللغة العربية إلى قائمة اللغات التي وقعت في مأزق أزمة المصطلح وتباينه وحداثته وتنوعه، نتيجة للمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على العالم بأسره. وبطغيان مصطلحات اللغات الأخرى الأساسية على الحياة العامة وعلى الشوارع العربية والعالمية، كان لا بد من دراسة وفهم (الثابت والمتحول) وآليتهما، للخروج من هذا المأزق التاريخي للغة العربية والعقل العربي.
ولنأخذ مثالاً قضية جدل فهم مصطلح (الحداثة)، وما أفرزته من خلافات حادة كشفت مأزق العقل العربي والإسلامي إزاء الجديد (المتحول)، وربط المصطلح بتهمة التبعية المباشرة والتغريب، دون محاولة التأمل والبحث عن جذوره ومقاصده..!
ما يجعلنا نعترف بوجود قصور فكري على مستوى التصالح مع ماهية المصطلح وآلياته بشكل عام، وهو ما لا يمكن استيعابه والتواصل معه في ظل سيطرة الرأي الفردي الاجتهادي، الذي ميز الثقافة العربية والإسلامية في فترات سابقة، معززاً بثالوث (المال، السلطة، الدين).
وتشير نتائج المؤتمرات والدراسات العربية التي تبحث عن الحلول، إلى رتابة الذهنية العربية في طريقتها في التعامل مع المطروح، وضعف استيعاب محوري (فقه اللغة) الذي يُعنى بدراسة التراث المخطوط بالدرجة

الأولى، و(علم اللغة) الذي يتلخص في تقليب جانب النحو والصرف وما إليهما من الصوت والمخرج والمعنى، وأدى ذلك الضعف إلى الخلط بين مذهبيهما الاصطلاحيين، وهو ما يمكن أن نعزوه إلى غياب المنهجية الفكرية، والعمل المؤسسي المنظم، الذي يباشر العمل وفق رؤية واضحة، ومنظومة عمل تعتمد فك الإشكالات الاصطلاحية اللغوية بمنهجية تستوعبها وتحتويها. ولنا في تأخر عقلية الشارع العربي بعمومه، وبطء فهمه لنسق وبنائية المصطلح وأهدافه أكبر الأمثلة، بدليل جنوح فكر المؤسسات الإعلامية واستخداماتها الغريبة لبعض المصطلحات المستحدثة في غير محلها، كمصطلح (الإسلاميين) مثلاً، لنقع في مأزق القصدية، ليبرز السؤال المنطقي؛ هل المقصود بمصطلح (الإسلاميين) هو الإشارة إلى معتنقي الدين الإسلامي، أم تلك الحركات والتنظيمات الجهادية أو الدعوية التي تتبنى الشعارات الدينية؟

فإن كان المعنى الأخير هو الذي يستهدفه المصطلح، فهذا يعني أن فئة بعينها فقط هي المسلمة الحقيقية، وتبقى غالبية من يدينون بالإسلام خارج نطاقه! وفي ذلك تلاعب واضح ومُربك ينفي صفة الإسلام عن غير المنتمين لتلك الفئات والتنظيمات.! هذا نموذج بسيط لأزمة فهم المصطلح في الثقافة العربية ولغتها ميكانيكياً وفكرياً، يجعلنا أمام ورطة حقيقية لا يبدو الخروج منها قريباً وممكناً في الوقت الراهن. ويلزمنا العمل بجدية لا نلغي من خلالها الآخر بكل زخمه وحضوره، وحتى نتخلص من الدوران داخل الحلقة المفرغة التي أنتجت مثل مأزقنا الحالي مع المصطلح المتجدد.

الفلسفة.. غائب في الضمير العربي

اتخذت العقلية العربية الإسلامية موقفاً مجافياً للفلسفة التي ازدهرت في نهايات القرن الثاني الهجري. وهي الفترة التي تلت المؤلفات الدينية المهتمة بالعقيدة الفلسفة لفظة يونانية مركبة من جزأين (فيلو) بمعنى (حبّ) و(سوفيا) بمعنى (حكمة)، أي أنها تعني في الأصل اليوناني، «حب الحكمة»، وقد تأتي بمعنى «طلب الحكمة» أيضاً، وليس امتلاكها»، ويعد الفيلسوف اليونانى «فيثاغورس» أول من استخدم لفظ فلسفة وحدد معناه بشكل تقريبي، لأن التعريف بمعنى التعريف المادي الصرف للفلسفة غير موجود إلى وقتنا هذا. وتستخدم كلمة الفلسفة في العصر الحديث للإشارة إلى السعي وراء المعرفة بخصوص مسائل جوهرية في حياة الإنسان، ومنها الموت والحياة والواقع والمعاني والحقيقة، بل وفي كل شيء تقريباً. كما تستخدم الكلمة ذاتها أيضاً للإشارة إلى ما أنتجه بعض كبار الفلاسفة من أعمال إنسانية فكرية مشتركة».

ويُعد اليوناني «سقراط» أعظم الفلاسفة الذين صنعوا مجداً مختلفاً لها، أثر فيما بعد على كل نقطة طرقتها الفلسفة، وقال عنه خطيب روما وكاتبها «ماركوس كيكِرو» والمعروف بـ شيشرون «إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض»، في مشهد اعترافي صريح بمنهج الفلسفة الذي تميز به أسلوب «سقراط»، ومن ثم تلامذته أمثال «أفلاطون»، وإشارة واضحة إلى آلية التفكير السقراطي الذي اعتمد (العقل والمنطق) كمنهجين أساسيين للوصول إلى نوى كل الأشياء بشكل عام. وهذا قد أخرج الفلسفة من نطاقها الضيق المحدود في التأمل الكوني فقط، الذي كانت تدور فيه وحوله، إلى أماكن أكثر رحابة وانطلاقاً في فضاءات الفكر والبحث عن المعرفة بالطرق الفلسفية.

لكن الفلسفة التي تُسمى في القاموس الاصطلاحي العربي «علم الكلام»، بقيت العلم الوحيد الذي لم تتصالح معه العقلية العربية الإسلامية بكليتها على مر العصور وإلى يومنا هذا، على الرغم من عمق جذور الفلسفة التاريخي وانتشارها عالمياً!

وبشكل أو بآخر؛ فقد اتخذت العقلية العربية الإسلامية موقفاً مجافياً للفلسفة، التي ازدهرت نسبياً في نهايات القرن الثاني الهجري، وهي الفترة التي تلت ظهور المؤلفات الدينية المهتمة بالعقيدة ومباحثها. حيث دار الجدل بين كثير من الفرق المهتمة بالذات الإلهية، والصفات والأوصاف والأسماء والماهية، فبرز التأمل أصل تعريف الإيمان والآخرة، والقدرية والجبرية...إلخ، التي وردت ضمنياً في القرآن الكريم تحديداً، وأدى ذلك لظهور الفرق المذهبية المختلفة في ضوء الانفتاح الفكري الذي تمتعت به تلك الفترة من التاريخ الإسلامي، برغم احتجاج ومعارضات البعض على استقدام الفلسفة إلى الذهنية العربية الإسلامية، كون الفلسفة قادمة أصلاً من عالم ذهني صرف، وبداية من عصر الترجمات الحقيقي في التاريخ الإسلامي الفترة العباسية، ابتداءً من حكم أبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، وصولاً إلى عهد المأمون، لكتب الفلسفة الإغريقية إلى السريانية ثم إلى العربية.

يبرز (أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي ٨٠٥ - ٨٧٣م)، كأحد أعظم الفلاسفة العرب الذين أثروا المكتبة العربية في فترة تاريخية مهمة، إذ يقول الكندي عن الفلسفة: «إنها أشرف وأعلى العلوم الإنسانية، إنها علمُ الأشياء في حقيقتها بقدر ما يكون الإنسان قادراً على ذلك».

ثم تجده يُعلن الحرب على أعداء الفلسفة بقوله: «إن معرفة الأشياء في حقيقتها -أي الفلسفة- تعني من جهة معرفة وحدانية الله وتعاليه، وتعني من جهة ثانية معرفة الفضيلة -أي نفس الفضيلة- التي كان الأنبياء قد تحدثوا عنها ودعونا لاتباعها، وبالتالي فلماذا تحاربون الفلسفة أيها الجهلة؟»، وهو الذى حاول تقديم علم الفلسفة إلى العقلية العربية من منظوره الزمنى

والفكري، واضعاً الكثير من أطروحاته الفكرية لخدمة التوفيق بين الفلسفة والعلوم الدينية على وجه الخصوص.
وحيثما ذكرت الفلسفة في الثقافة العربية، لابد من التوقف عند (أبو نصر محمد الفارابي ٨٧٤ - ٩٥٠م)، أحد أبرز أشهر المؤثرين في المكتبة العربية والمثرين لها، وصاحب نظرية (الصدور والفيض)، وهي النظرية التي حاول من خلالها التقريب لفهم الوجود، كأبرز ما قدمه الفارابي في حياته كفيلسوف، إذ يرى (الفارابي) بأن هناك حقيقة واحدة فقط، لا حقيقتين لموضوع واحد. مقسماً الموجودات إلى قسمين:
(الموجود الممكن الوجود: وهي الموجودات التي تستدعي العلة والتعليل لوجودها إذا وجدت، لأن وجودها مرتبط بحوادث لها علة حدوث، -
والموجود الواجب الوجود: وهو الموجود المفروض وجوده، ما يستدعي وجوده بالقطعية لتبرير علل الموجودات الممكنة)، ويُعتبر (الفارابي) من أساتذة المنطق اللامعين، غير أنه غلب عليه تقليد (أرسطو) في بعض أطروحاته، لكنه يُعد بحق رمزاً عظيماً لمنطق وذكاء العقلية الإسلامية، ويشهد بذلك كتابه الرائع (كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي، وأرسطو طاليس)، محاولاً الجمع بين المثالية الأفلاطونية، والواقعية الأرسطية فلسفياً وفكرياً.
ثم نستدعي من التاريخ العربي أيضاً أحد أهم الرموز الفلسفية والعقلية العربية الأصيلة، وهو (أبو الوليد ابن رشد ١١٢٥ - ١١٩٨م)، وهو الذي لم ير تعارضاً بين الدين والأخلاق، وقال بالعديد من الأطروحات، وقد أورد أن الروح منقسمة إلى قسمين: يتعلق الأول بالشخص، ويتعلق الثاني بضمنية الإلهية وارتباطها بالشخص وما فيه. وهي إحدى الأطروحات التي رفضها بعض القائلين برفض كل ما يتعلق بمنطق الفلسفة اليونانية القديمة (لأفلاطون وأرسطو). ثم حين نقلب أوراق العصر الحديث، يبرز إلى الواجهة (محمد عابد الجابري، ونصر حامد أبوزيد، وفرج فودة، وعدنان إبراهيم)، وغيرهم من المفكرين الذين أخذوا على عاتقهم تكريس العقل والمنطق، لفهم الوجود والاستدلال على الأشياء بمنطقها التسلسلي لا بكليتها العشوائية.
ومثلما هوجم فلاسفة القرون الأولى حتى بلغ حد التكفير، لم تسلم الذهنية العربية الإسلامية من تحجر عقلية دعاة العداء الفكري للفلسفة، وتقديم حجة تصادم الفلسفة بالدين، دون أن يفكروا لو للحظة في استثمارها للاستدلال على المعتقد الديني. ولنا فيما تعرض له الفيلسوف العربي الكبير (أبو الوليد محمد ابن رشد) من أذية واتهام بالزندقة والهرطقة ثم حرق كتبه ونفيه، وهو القائل بأنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، وأن الفضيلة لا تتم إلا في المجتمع الإنساني المتصالح، معللاً ذلك بقصر الخلود على عقل البشرية الجمعي، الذي يغتني ويتطور من جيل إلى آخر. كما انتقد صراحة كسل العقلية العربية الإسلامية، وعدم جدية نزعتها فى البحث عن حلول لنقاط

وفواصل مسائلها وإشكالاتها الفكرية الحديثة المتوالية.
هذا الإرث المعرفي النوعي بالفلسفة في ثقافتا العربية كعلم أصيل، يؤكد أننا نستطيع استيعاب كل العلوم، والتماهي مع مقاصدها بلا حدود، وهذا من شأنه تحطيم الأغلال عن الفكرة والتفكير، وفك ما استشكل بين العقل والنقل، ورسم معالم طريق أكثر وعياً، وفي ذلك دليل تاريخي مادي يُنكر على القائلين بعجز الذهنية العربية على تناول العلوم الفلسفية بثقة.
والمروجون للأطروحات العدائية، يدافعون عن منطقهم الأحادي الإقصائي الذي يتمترسون خلفه، وينطلقون منه بغرض السيطرة على المجتمعات، غير واعين في الوقت ذاته أن ذلك الحجر غير المنطقي، إنما يُعطل إلى حد بعيد انطلاقة الفكر العربي والإسلامي كماً وكيفاً، ويسهم في وضعنا في مؤخرة الأمم والمجتمعات الإنسانية، خصوصاً في ظل تقارب الزمن والثقافة عالمياً، وتسارع الناتج المعرفي بموازاة الكم العلمي والفكري والاجتماعي والسياسي والمدني، ولا بد أن نتخلص من فكرة تبني أحادية الفكر، لنقدم نموذجاً حديثاً عن القيم الخلاقة، التي بالإمكان تقديمها للبشرية كجزء من شراكتنا وآدميتنا وإنسانيتنا.

الفصل الرابع

من سيرة الجهل العربي
١٠٠ عام على سؤال التخلف
الحضارة الإسلامية والعقل
وهم الحضارة العربية

من سيرة الجهل العربي

نحن العرب لم نكن أصحاب ثقافة كتابة وتدوين، بل أصحاب ثقافة رواية ومشافهة، لذلك كان منطقيا أن يضيع قسم كبير من ذاكرة التراكم الثقافي التاريخي للعرب كالفنون والأدبيات أسهمت طبيعة تضاريس الجزيرة العربية القاسية قبل ظهور الإسلام في بناء شخصية الإنسان العربي الشرسة الحادة والصلبة، ورسمت حالة تصحرٍ معظم مساحات شبه الجزيرة العربية سحنات وجهه وتفاصيله، وأفرزت تبعاً لذلك مجتمعاً بكيانات قبلية صغيرة متناثرة، يجمع ما بينها البنية التركيبية، ويميزها سلوك العصبية.
ولم يسجل التاريخ قيام أية أنظمة شبيهة أو قريبة من أنظمة الدولة بمعناها السياسي والاجتماعي، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته في الفصل ٢٧: «إنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة، وبعد الهمة، والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم»، وتابع قائلاً: «وهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها، لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش».
وقد عُرفت الفترة الزمنية لما قبل الإسلام بـ«العصر الجاهلي»، وهي تسمية غير منطقية من وجهة نظري، إذ الجهل يقابله العلم لغوياً ومنطقياً، والأرجح أن ما كانت عليه حالة التخلف والتناحر والقتال بين تلك القبائل، هو السبب المنطقي لاستخدام وإطلاق وصف «الجهل» عليها، فالابتعاد عن المنطق

والعقل سبب مسوغ لتبرير الوصف.
وبظهور الإسلام وانتشاره بين تلك القبائل، خفتت نوعاً ما حدة الطباع الشرسة للإنسان العربي بصفة عامة، لكنها استمرت معه عبر أجياله اللاحقة وإلى يومنا هذا وإن بنسب متفاوتة، متخذة أشكالاً متعددة، كان أبرزها وأهمها على الإطلاق ما تمثل في معاداة مذاهب العقل والمنطق والفلسفة، وتغليب مبادئ النقل والتواتر للمرويات، والتي تُعتبر ثقافة أصيلة في الوجدان العربي. فنحن العرب بصفة عامة لم نكن أصحاب ثقافة كتابة وتدوين، بل أصحاب ثقافة رواية ومشافهة، حتى إن اسم كتابنا المقدس هو (القرآن)، لذلك فمن السهل والمنطقي جداً أن يضيع قسم كبير من ذاكرة التراكم الثقافي التاريخي للعرب كالفنون والأدبيات، وهو ما تسبب في الحد من نمو ثقافة وخبرات العقل وازدهار عمليتي التفكير والتأمل الباحثتين عن الإبداع والابتكار.
وحين تمدد الإسلام إلى خارج شبه الجزيرة العربية، واختلط العرب المسلمون بمختلف الأجناس الأممية الأخرى صاحبة الثقافة التدوينية، في الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهرين، انفتحت أبواب التنوير التي ظلت موصدة لحقب طويلة في ثقافة العرب، وتحسنت إلى حدٍ ما طريقة تفكير العربي مع تنوع طرق الطرح والتناول، وبدأت بوادر الانتفاضة والتحرر من قيود الظلام تلوح في الأفق، لكن تكوين العقل العربي المنفصل عن العلوم الفلسفية والمنطق، وبنية الشخصية العربية الخشنة بقيتا متلازمتين على نحو ما، وتضغطان باتجاه الماضي المعقد والمستبد.
وحين بدأت بالظهور إلى واقع المجتمعات العربية والإسلامية طلائع المذاهب الفكرية التي ترى في العقل حجة ومفصلاً، عاد الجاهلي المختبئ في أعماق العربي ليستيقظ من غفوته القصيرة، وليحرف في حربه الضروس على العقل اتجاه بوصلة التنوير المحتملة، ويقضي على أولى العلامات المبشرة بالضوء، في آخر نفق جهل وتخلف العقل العربي والإسلامي، وليتحول الاختلاف المحمود بين المذاهب الفكرية والأئمة، إلى خلاف قبيح ومذموم بين عشية وضحاها. حدث ذلك في القرون الأولى، وها نحن اليوم نعيش نفس المشهد -الذي لم يختلف كثيراً عن سابقه- على طريقة القبائل العربية قبل الإسلام طبعاً، ولكن هذه المرة بجلباب الإسلام البريء مما يفعلون.
ينقل التاريخ عن الإمام الشافعي قوله في الإمام أبي حنيفة: «الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه». وهكذا كان أصحاب المذاهب العقلاء يتحدثون عن بعضهم، اليوم يكفي أن تفتح القنوات الفضائية، أو تتصفح قليلا موقع «يوتيوب» لتكتشف الحقيقة المؤلمة عن (ضحالة وضعف) العقل العربي والإسلامي، وستشعر مثلي بالغثيان لا محالة.

١٠٠ عام على سؤال التخلف

قبل أكثر من ١٠٠ عام طرح سؤال: لماذا تخلّف العرب والمسلمون عن العالم؟

لم يكن أمام مفكرينا يومها أمثال الإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي، وغيرهم -خصوصاً بعد الهزائم المتلاحقة للجيوش العربية في الأقاليم على يد المستعمرين الغربيين والأوروبيين تحديداً- سوى طرح هذا التساؤل المهم، الذي ما زال يضغط على الثقافة العربية والإسلامية ليل نهار.

إذ لم تكن الأحوال جيدة بما يكفي لنتجنب هذا السؤال، فقد كانت الفوارق على مستوى النضج في تكوين المؤسسات السياسية والمدنية والاجتماعية والفكرية بيننا وبين الغرب شاسعة جداً، وهو ما دفع منظومة الفكر العربي لدى مفكرينا ودعاة الإصلاح إلى استحضار هذا السؤال، ليكون حتمياً وواقعاً يصطدم به كل من ذهب للنظر خارج دائرة الثقافة العربية والإسلامية.

من وجهة نظري، أن أهم عقبات وعُقد السؤال تكمن في انطلاقه من أرضية النظرة الدينية للأشياء، مما تسبب في وقوع أي محاولة لتحرك ما إلى المستقبل في قبضة العقل الجمعي الذي يضع مصطلح «الأمة» في المقدمة.

وهي نقطة تعني أنك ستكون دائماً وأبداً أسيراً لقرار جمعي ليس لك، وهذا القرار الجمعي لم يتحقق يوما على مستوى العالم، لا في الدين ولا في السياسة ولا في الثقافة ولا في الطبيعة، لأن التنوع هو قانون الوجود ودافعه الأكبر للإبداع والتقدم، وكونك فرداً في المجموعة يتحتم عليك الانصياع دائما لقرار الغالبية -هذا جيد- لكن ماذا لو كانت الغالبية مشوشة وغير قادرة على الخروج عن النمطية والعادية؟!

هذه هي العقدة التي يحاول الآن عدد من الدول العربية والإسلامية التخلص منها، بعد اكتشافها خطأ الارتهان إلى سلاسل فكرة العقل الجمعي التاريخية.

اليوم، يعيد العرب والمسلمون بعد أكثر من ١٠٠ عام السؤال ذاته على نحو ما كان عليه، لكن المصيبة أنهم يعتقدون أن الفوارق في التقدم باتت صغيرة وضيقة جداً، لمجرد أنهم أصبحوا بحصولهم على الأشياء المادية يرون أنهم قلصوا الفوارق الصناعية والاقتصادية والفكرية والسياسية، بينما الواقع يقول إن ما حدث لم يكن سوى صورة أكثر قسوة للتخلف، فالعرب والمسلمون حالياً ليسوا أمماً منتجة للصناعات الثقيلة والذكية التي تكتسح العالم، وكل دولهم -بلا استثناء- مصنفة ضمن العالم الثالث، كما أن العدد الأكبر من دولهم يعاني من الحروب والفقر والتخلف والقيادات السياسية الفاشلة، والمشاريع الاقتصادية المتهالكة.

هذه المدرسة التقليدية التي تجتر نفسها منذ قرون في التاريخ الإسلامي، ما زالت تضغط على العقل العربي الأسير، وتجعله خارج معادلة التطور والبناء والقدرة على المشاركة، خصوصاً أنهم قرروا أن قدرة العقل أقل في استيعاب الأنماط الفكرية النقلية التي توارثوها في مطلع الربع الثاني من القرن الثالث الهجري، وتحديداً منذ «عهد الخليفة العباسي المتوكل ٢٣٢ هجرية»!

لنتخلص من عقدة السؤال التاريخية، أظن أن علينا طرحه بطريقة أخرى ليكون على هيئة: لماذا فشلت مشاريع التحديث العربية والإسلامية؟

ربما عبر هذه الصيغة يمكننا أن نواجه عدداً مهماً من الخيبات التي استولت علينا، ونسارع في البحث عن حلول عاجلة، تمكننا من الخروج من سيطرة العقلية التابعة، التي طالما تحكمت في مصير شعوب تم دمجها وإذابة ثقافتها داخل مفهوم الأمة الهلامي، الذي ترفعه دائماً قوى الرجعية والأطراف الماضوية التقليدية، إلى فضاءات أفكار التحديث من الداخل، وهو الهدف الذي يفترض بنا الركض خلفه بلا هوادة.

الحضارة الإسلامية والعقل

أحد أسوأ ما حدث في تاريخ الحضارة الإسلامية، تمثل في ظهور مدرسة تحريم العلوم الإنسانية كالفلسفة (علم الكلام) وعلم المنطق والفنون وغيرها، في القرن الخامس الهجري على يد أبو حامد الغزالي
نشأت الثقافة الإسلامية التي شكلت الحضارة الإسلامية، مع أول ظهور للرسالة المحمدية في مكة المكرمة، وتعاظمت تالياً مع تقدم المسلمين الحربي شمالاً وشرقاً وغرباً خارج نطاق الجزيرة العربية، وبدأت في رسم معالم خاصة هجينة، أسست مجتمعات تذوب داخلها كل الأعراق والأجناس، محطمة ضمنياً في أسسها أية اشتراطات عنصرية، ونتيجة لتلاقي الأيديولوجيا الإسلامية مع حضارات وتجارب الشعوب الأخرى، ظهرت براعة الحضارة الإسلامية بمستوى عال من الوعي والقوة، وأثرت وأضافت إلى المنجز الإنساني بعداً جديداً، بفضل الامتزاج الخلاق الذي حدث بينها وبين المنجز الحضاري للثقافات الأخرى، واستمرت مبدعة ومؤثرة تاريخياً زمناً طويلاً، جعل منها منارة عظيمة للعالم من حولها.

لكن هذه الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات الإنسانية مرت بمراحل الضعف والتقهقر، وبدأت في التنازل عن مكتسباتها رويداً رويداً على غفلة منها، لتخليها عن التعددية الثقافية الفكرية، وهي التي قدمت الإسلام إشعاعاً للحضارات الأخرى عن طريق (الإقناع العقلي) والتطبيق الفعلي، كمنهج

سلوكي بارع، لا عن طريق تقديم المعجزات والخوارق كما فعلت الديانات الأخرى، بل الحجة بالحجة، والرأي بالرأي، وهو ما أفضى دائماً إلى تشكل العقلية الإسلامية الحيوية المبدعة، وتسيدها كقائدة لحركة النهضة الثقافية والفكرية والاقتصادية الهائلة للدولة الإسلامية، وكذلك من خلال التطبيق العملي للمفاهيم الإسلامية، المؤكدة على سمو الأخلاق والتسامح والعدل والمساواة.

لكن أحد أسوأ ما حدث في تاريخ الحضارة الإسلامية، تمثل في ظهور مدرسة تحريم العلوم الإنسانية كالفلسفة (علم الكلام) وعلم المنطق والفنون وغيرها، في القرن الخامس الهجري على يد أبو حامد الغزالي، فتعطل أحد أهم روافد الفكر والثقافة في الحضارة الإسلامية، ليقع جزء مهم من الوعي الإسلامي في قبضة المشروع السياسي الحاكم، ولتبدأ رحلة (تسييس) الدين، وتغيير مبدأ (الحاكم في خدمة الدين)، الذي كان قائماً في عهود الخلفاء الأربعة «أبوبكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب»، وتتربع لعبة المصالح السياسية على رأس هرم المفهوم الديني بطريقة فجة ولا أخلاقية أحياناً، وقد كان للخليفة العباسي «المأمون» دور في بدء تقريب الأطروحات الدينية المختلفة في عهده، كسياسة ليكسب من خلالها معظم الفرق الدينية وتوجهاتها، ثم ما لبث أن قرب جماعة المعتزلة واعتنق فكرهم، وليمتد ذلك

إلى عهد الخليفة العباسي «المتوكل»، الذي عطل الفكر المعتزلي وقرب الفكر الأشعري، لتكون مثل هذه التحولات الجوهرية وما شابهها لاحقاً، سبباً في تجزئة النصوص الدينية، وخلخلة تماسك المنظومة الاجتماعية للدولة الإسلامية، والخلل الأبرز لتأخر الأمة الإسلامية فكرياً وحضارياً، ناهيك عن دخول كثير من الأعاجم على خط القرار السياسي للدولة، وتأثيرهم البالغ في بنية الدولة الإسلامية، وظهور عصور طويلة من الاستبداد السياسي المقيت، والجدل الديني الفكري المتنامي والمدعوم بعصبية الأنا ونحن وهم، ليمتد الحال المترنح للعالم الإسلامي وحضارته إلى عصرنا الحاضر مع الأسف، وفي ذلك يقول أستاذ الفلسفة الإسلامية الدكتور «حامد طاهر» في بحثه الذي قدمه في المؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية بعنوان «مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين»: «لعب الفقهاء ورجال الدين دوراً بارزاً سواء بقصد أو دون في استفحال هذا الاستبداد، وعن ذلك يقول خير الدين التونسي، الذي عزا عوائق التقدم في العالم الإسلامي إلى طائفتين: رجال الدين الذين يعلمون الشريعة بحذافيرها ولا يعرفون أحوال الدنيا، ويريدون تطبيق الشريعة بحذافيرها دون مراعاة المستحدثات، ورجال السياسة الذين يعرفون الدنيا ولا يعرفون الشريعة، وعنده لابد لقيام الدولة المتحضرة من

ركنين أساسيين، لا يقوم التحضر في مجتمع ما إلا بهما، وهما العدل والحرية اللذان يتبعان العمران والازدهار، أما الظلم والاستبداد فلا ينتج عنهما إلا التخلف والخراب وهذا قانون اجتماعي لا يتخلف».

وهنا تجدر الاشارة إلى أن تلك الفترات التاريخية السياسية العصيبة التي مرت بها الدولة الإسلامية، قد خيمت بظلالها القبيحة على النموذج الفكري الإسلامي الصحيح، ذلك

النموذج الذي منح العقل مساحات عريضة لتقديم نفسه وعبقريته، وأخلت بتوازنه وعبثت بمقدراته التاريخية إلى يومنا هذا، وجعلته يعيش حالة من الغيبوبة الذهنية والفقر الفكري، وكأنما تعطلت بوصلة طريق عودة العنفوان الحضاري للعقل الإسلامي، ولكن لمصلحة من كل هذا التغييب للعقل المسلم، وإلى متى؟

وهم الحضارة العربية

«التاريخ أكذب المتحدثين»، هذه المقولة تبدو صحيحة ويحققها المنقول بين أيدينا عن الحضارة العربية. تكشف حقائق منجزنا مقارنة بالمنجز الأممي الموازي قديماً وحديثاً ومعاصراً. والتاريخ مفردة فضفاضة، يقرره ابن خلدون بقوله: (التاريخ في ظاهره لا يزيد على الإخبار، وفي باطنه تحقيق ونظر)، وأنا لم أفعل غير ذلك التاريخ، مفردة جدلية أزلية، ولم نكن نحن العرب صادقين مع أنفسنا ونحن نكتب تاريخنا الذي يمتد لمئات مئات السنين. فتعاملنا معها بطريقة مزعجة أوقعتنا في مأزق فكرية وأيديولوجية وسيكولوجية لا حصر لها. ومن الطبيعي أن يتنامي سقف ترسبات الأخطاء تبعاً لطريقة التناول تلك، وترتب على ذلك ما نعانيه في الوقت الراهن من المشكلات الفكرية وغيرها. لقد أوغلنا في تهويل أرجوزة الفتوحات التاريخية العلمية والثقافية التي (افترضنا في عقلنا الباطن) تقديمها للتاريخ الإنساني. وذهبنا بعيداً كعادتنا خلف تمجيد ما لم يكن في أصله (إنتاجاً أو اختراعاً أو اكتشافاً) عربياً خالصاً. فمنذ نشأة التاريخ الإنساني على امتداده، لم يقدم العرب أكثر من نقل أو تهذيب بعض ما اكتشفته أو اخترعته الأمم الأخرى. التي تقدمت علينا، في عوالم التقدم والتحليق وطرح الأفكار، وتقديم منجز الاكتشافات والنظريات العلمية التي ساهمت في صنع أجندة الحضارة الإنسانية على كل المستويات. لقد أخطأ بعض المؤرخين عندما قرروا تقدمنا على الأمم الأخرى في زمن ما وبشكل فيه الكثير من المبالغات. على جيراننا الفرس والروم، والهنود، والصينيين، والمصريين، (ولا أرغب

الخوض في عمق قصة وعظمة تاريخ الصينيين وقدماء المصريين)، لأن ذلك سيجعلنا في موقف حرج إلى حدٍ بعيد. فقبل آلاف السنين لم يلتفت الإسكندر المقدوني إلينا حتى بطرف عينه اليمنى وهو يتجه شرقاً صوب فارس والهند والقوقاز. لعلمه أنه لا شيء يستحق العناء.
هناك حقائق لن يستطيع إنكارها عتاة المدافعين عن وهم الحضارة العربية المدونة في كتب ومقررات التاريخ الذي بين أيدينا. والذي بقينا ندافع عن أصغر التفاصيل الواردة في متنه وحواشيه منذ أن بدأنا بتدوين تاريخ (أمجاد ومنجزات الأمة العربية). حقائق لا يرغب البعض في نبش مستورها لشعورهم بالخوف من فقدان صولجان الوهم بتقدم الحضارة العربية ذات حروب. (أن نعيش على الوهم تلك أم المشكلات) فالثقافة العربية لم تكن أمة تدوين وكتابة بالأصل، بقدر ما كانت أمة صوتية ترتكز يومياتها على (الرواية والمشافهة)، الذي لم يتغير كثيراً إلا بعد ١٥٠ عاماً تقريباً من ظهور الإسلام. وواقع قصة الحضارة لا تتعدى أن كنا في معظمها مجرد ناقلين، ومهذبين لبعض أسطر المنجزات الإنسانية على مر العصور. وحين تهيأت ظروف مناسبة لننفتح على العالم المحيط بنا من أقصاه شرقاً، إلى أقصاه غرباً (على طريقتنا). أدهشتنا تلك الأمم بمقدراتها وما تملكه من المنجزات والروائع. وفغرت أفواهنا من جمال وبهاء ما رأت الأعين. فتلقفنا ما بين أيديهم من أصول الاكتشافات والنظريات، وعكفنا على ترجمتها، في عملية تدوير تاريخية. راح البعض ينسبها إلينا!
فيما لم تعرف الجزيرة العربية على امتداد تاريخها حضارة حقيقية مدهشة مقارنة بالمنجز الحضاري المقابل عند جيراننا من الأمم الأخرى، باستثناء تلك التي رسمت لنفسها طريقاً حقيقياً في أطرافها الجنوبية التي تعرف بحضارة مملكة سبأ باليمن. وعدا ذلك لا شيء هناك. فالعرب الذين لم يخرجوا من نطاق شبه الجزيرة العربية بشكل مؤثر قبل الإسلام. لم يقدموا شيئاً جديراً بالحديث عنه أو مناقشته بتعمق. إذ بقي أسلافنا العرب أهل حرب وتناحر وتخلف بمعنى الكلمة. والتاريخ يؤكد ذلك في قصصه العديدة. كقصة (الزير سالم) ذلك المقاتل الأخرق الذي قاد حرباً مدة ٤٠ عاماً للأخذ بالثأر!! وحين تقدمت إلينا جيوش الحبشة، لم نجد لأنفسنا حولاً ولا قوة، فهرولنا لنأخذ إبلنا، وندع البيت لربه ليحميه، وقد فعل وحماه.
تاريخ حضارتنا العربية المدون بعد ظهور الإسلام، قد تأمّل فيه وبناه لنا في الأصل غير الأعراب. فمن استنبط لنا قواعد لغتنا هم الأعاجم بعد أن أسلموا كـ(سيبويه، والرازي، والفيروز أبادي، وغيرهم). ومن دونوا لنا كتب الحديث والفنون الأدبية هم أنفسهم إخوتنا الأعاجم كـ(البخاري، ومسلم، والفارابي، وابن المقفع.. وغيرهم). وأشهر الأطباء في تاريخ العرب من إخواننا الأعاجم كـ(ابن سينا، والرازي)، وأبرز علماء الحساب والجبر من الأعاجم كـ(الخوارزمي، والبيروني،.. وغيرهم)، وأبرع علماء الفلك في تاريخنا من

الأعاجم أيضاً. ولأننا لم نكن نحن الأعراب أصحاب العلوم والمنجزات، لم يدم انتعاش حضارة ما بعد الإسلام أكثر من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ عام فقط، فقد ذهب كلٌ بما هو له. وبقينا نحن نتغنى بأهزوجة خداع أنفسنا (بالماضي الجميل) الذي لم نكن فيه إلا متأثرين لا مؤثرين.

«التاريخ أكذب المتحدثين»، هذه المقولة تبدو صحيحة ويحققها المنقول بين أيدينا عن الحضارة العربية. تكشف حقائق منجزنا مقارنة بالمنجز الأممي الموازي قديماً وحديثاً ومعاصراً. والتاريخ مفردة فضفاضة، يقرره ابن خلدون بقوله: (التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، وفي باطنه تحقيق ونظر)، وأنا لم أفعل غير ذلك. وإذا ما أردنا تحقيق مشاركة فاعلة في الضمير الحضاري الإنساني، فعلينا أولاً التحلي بروح المكاشفة، ونقد ما بين أيدنا وفق آلية تعتمد التصالح مع الفكرة أياً كانت. لقد تأخرنا كثيراً نتيجة اقتناعنا بفكرة تقديسنا لبعض ما قدمه بعض الأسلاف. فمتى سنتحول بقناعة إلى أمة عمل وإنتاج ومنجزات إنسانية عظيمة.